

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمocrاطية

العدد ١٧٦ - إبريل ٢٠٠٠

♦ العولمة: إمبريالية ما بعد الحداثة (حوار مع نايف بلوز)

♦ لا أكاد أشك، لا أكاد أؤمن (مختارات من قصيدة النثر في التراث القديم والحديث) ♦ تجليات المشهد الشعري الراهن ♦ أم كلثوم: بعيد عنك حياتي عذاب ♦ قرية راغب عياد ♦ نقاد التراحييل ♦ غواية القص عند

مجدى حسنين







أَدَبٌ وَنُفَافٌ

مجلة الثقة الفالحة الوطنية الديمقراطية
شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحيد
العدد ١٧٦ - أبريل ٢٠٠٣



رئيس مجلس الادارة: د. رفعت استعفيف
رئيس التحرير: فريدة النقاش
مدير التحرير: حلمى سالم
سكرتير التحرير: مصطفى عباده

مجلس التحرير: إبراهيم أصلان / د. صلاح
السروى / طلعت الشايب / غادة نبيل / كمال
رمزي / ماجد يوسف



مكتبة لسان العرب



المستشارون: د. الطاهر مكي / د. أمير ناصر شيد
 / صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس
 شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون: د. لطيفه
 الزيات / د. عبد المحسن طه بيادر / محمد دوميش / ملك عبد العزيز
 - لوحات الفنانيين: د. يحيى حليم
 - الرسمون الداخليون للفنان: د. شرف إبراهيم
 طبع شركة الأمل لطباعة ونشر
 أعمال الصحف والتوضيب الفنى: تحرير سعيد إبراهيم
 المراسلات: مجلة أدب ونقد ١ شارع كريم الدولة / ميدان ملعت حرب الأهالى
 القاهرة - ت: ٢٩ / ٥٧٩١٦٢٧ فاكس: ٥٧٨٤٨٦٧
 الاشتراكات لمدة عام: داخل مصر ٤٠ جنيها / البلاد العربية ٢٠ دولاراً -
 أوروبا وأمريكا ٦٠ دولاراً باسم الأهالى - مجلة أدب ونقد، الأعمال الواردة
 إلى المجلة لا ترد لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

المحتويات

- أول الكتابة / المحررة / ٥
- عرب العولمة وعولمة العرب / حوار مع المفكر السورى نايف بلوز / سربست نبى / ١١
- زى بسيط لأعوام قادمة / شعر / ابراهيم داود / ٦٦
- أم كلثوم: بعيد عنك حياتي عذاب / عين / د. أحمد عزب العرب / ٧٠
- أسير / قصة / خالد سليمان / ٧٦
- نقوش غائرة على حجارة متناشرة / نص تسجيلى / قاسم مسعد عليوه / ٧٨

جرشـكـل

- * نقاد التراحيل / فريد أبو سعدة / ٨٦
- * دريدا والتفسيكية المستحبيلة / عادل الحرانى / ٨٩
- * أقذفهم بقصيدة نثر / محمود خيز الله / ٩٣

• الديوان الصغير

- * لا أكاذ أشك .. لا أكاد أونق : مختارات من قصيدة النثر فى تراثنا القديم والحديث/ اختيار وتقديم : حلمى سالم ٩٧
- تجليات اللحظة الشعرية الراهنة / دراسة / د. وليد منير ١١٢/
- السينما الاسرائيلية وسياسات التمثيل / تأليف : ايللاشوهاط / ترجمة وعرض د. أحمد يوسف / ١٣٠
- نشوة شاردة / شعر / صلاح بو سريف / ١٤٧
- غواية القص فى ناصية سليمان / نقد / عيد عبد الحليم ١٥٠/
- القرية المصرية فى أعمال راغب عياد / فن تشكيلى/تأليف : أناتونى بوجданوف / ترجمة د. أشرف الصباغ / ١٥٥



● ندوة «أدب ونقد» ●

تنظم مجلة «أدب ونقد» ندوة أدبية أسبوعية مساء كل أربعاء ، وتبدأ أولى هذه الندوات يوم الأربعاء ١٢ أبريل ٢٠٠٠ ، بندوة حول مشوار الشاعر الكبير محمد عفيفي مطر، احتفالاً بحصوله على جائزة العويس الشعرية، وبصدور أعماله الكاملة عن «دار الشروق» .. أما الندوة الثانية فستكون حول رواية «عصافير النيل» للكاتب الكبير إبراهيم أصلان، «عضو مجلس تحرير أدب ونقد» والدعوة عامة .
وسوف تتواصل الندوة أسبوعياً

«أدب ونقد»

أول الكتابة

الاعتماد على الإمكانيات الوطنية ، وضرورة تعاون الدول النامية ، والاتجاه نحو الوحدة القومية على الصعيد العربي ، هذا هو الرد الإيجابي الذي تملكه البلدان النامية والفقيرة على العولمة التي تتجه إلى أمراكة العالم وهيمنة الولايات المتحدة عليه بالتقنولوجيا والمال والثقافة.

هذه هي بعض الأفكار الرئيسية في الحوار الشامل الذي نشرة على مساحة كبيرة في هذا العدد مع المفكر العربي (السوري) التقدمي الراحل نايف بلوز الذي مات قبل شهور دون أن يكون معروفاً على النطاق الذي يستحقه . بلوز هو واحد من المفكرين العرب الكبار الذين انتقدوا العولمة نقداً جذرياً باعتبارها أيديولوجياً السوق ، وقد اشتد الهجوم الأيديولوجي والعملي للرأسمالية بعد سقوط الاتحاد السوفيتي معتمداً على مبدأ حرية الأسواق والتجارة ، وأخذت الشركات متعددة الجنسية تحل محل الدولة ، وتغير الدور التاريخي للدولة ، وأخذ شعار الليبرالية القديم الذي ارتبط بنشأتها « دعه يعمل دمه يمر » يتحول إلى قانون ثابت.

ومع ذلك فإن العولمة الأمريكية لاتتجه أبداً إلى ما يتعارض مع مصالح الاقتصاد المحلي القومي الأمريكي ، أي أن تراجع الدولة هو من نصيب الضعفاء والقراء في العالم الثالث وحدهم .

إذ تقوم الشركات متعددة الجنسية بدمير الدولة في البلدان النامية بطرق شتى منها افساد ممثل الدولة الوطنية واستغلالهم وجعلهم موظفين لديها ، وبعد أن فشلت التنمية في هذه البلدان استقر الجزء الأعظم من حسابات الفئات الحاكمة لدى البنوك في الخارج ... أي جرى نهب ثروات الفقراء لينضم حكامهم لنادي أغنياء العالم.

ولأن التاريخ ليس جدلية ذاتية الحركة أو « أنته » بل هو مصنع للوعي ، فإن المسالة تحتاج لما هو أكثر من المصالح الأخلاقية .. تحتاج إلى العمل والنضال من أجل تغيير الواقع ، خاصة وأننا نجد أنفسنا أمام مفارقة أن الرأسمالية رغم كونها المنتصرة واقعياً الآن على الاشتراكية هي محكمة

تارياً بالزوال ، وأن الاشتراكية وهي النظام الاجتماعي المزوم واقتباً مرشحة ، أو هي قيد الترشيح تاريخياً للتحقق لكن تحققها مشروط بقوة النضال وليس حتمية قدرية ، إذ أنه يمكن أن يتغلق بديل آخر للرأسمالية هو الفوضى الشاملة أو امبراطورية الفوضى على حد تعبير " سمير أمين " .

ويرد بلوز ردًا شاملًا علمياً مؤصلًا على دعوة التطور التكنولوجي باعتباره العامل الحاسم في التاريخ إذ لا يمكن فصل التطور التكنولوجي عن يستخدمونه أو فصل قوى الانتاج عن علاقات الانتاج ، فنحن نعيش في عالم تلعب التكنولوجيا فيه دوراً هائلاً لكن الصراع الطبقي فيه يشتد ، وربما تستطيع في المستقبل الاستغناء عن فكرة البروليتاريا ، لكن لا يمكننا الاستغناء عن فكرة الإنسان والحرية والعدل وتوزيع الثروة لصالح الأغلبية الساحقة.

نشرنا هذا الحوار والتعليقات المختلفة عليه أملين أن تكون تلك مادة للنقاش المتواصل ، وسوف تدرجها ضمن برنامج ندوة " أدب ونقد " التي ستبدأ نشاطها مع منتصف هذا الشهر في المقر المركزي لحزب التجمع في وسط القاهرة ، لتناول الإجابة معاً على السؤال المطروح الآن بقوة :
ماذا نفعل الآن ؟ وماهى الطرق المفتوحة أمامنا ، والأبواب التي علينا أن ندقها بكل قوة لتنفتح ؟

هناك سور متزايد القوة لافحسب لدى المثقفين أو القطاعات الواسعة منهم ، وإنما أيضًا لدى الغالبية العظمى من الجماهير بأن الأوضاع التي وصلنا إليها - على كل المستويات - لايمكن أن تستمر ، وأن هناك حاجة ماسة وملحة للتغيير العميق ، و MASOF يحدد مسار هذا التغيير وتوجهاته هو نوعية العمل الجماعي الدءوب والمتراكم والمرن الذي يمكن أن يجعل منه تغييراً إلى الأفضل بدلاً من التدهور الشامل الذي تتجلى بعض مظاهره في الكثير من مفردات حياتنا الان ، فتمزق وشائعج كانت مستقرة ، وثمة رائحة لحريق وكأنه يلتهم العفن .. أو لتأمل أن لايلتهم الأخضر والبابس .

* وكل من ليس له هذه النار ، فليمتهن ، على حد التعبير البلبل " لجلال الدين الرومي " الذى اخترنا بعض نصوص له ضمن الديوان الصغير لهذا العدد من قصيدة النثر فى ترااثنا . ولدى زيارة الشاعر " أدونيس " لمصر تجددت



السجالات حول قصيدة النثر في الشعر العربي ، وهل يحق لها أن تتنسب إلى الشعر أم لا ، وهل تتحقق الشعرية بعيداً عن الوزن الخليلي ، وهو السؤال الذي أجاب عنه الحركة النقدية والنصوص نفسها بالإيجاب ، إذ أن جدل الإيقاع والجاز هو لحمة الشعر بصرف النظر عن قواعد الخليل بل أكاد أقول سجنته.

وبالرغم من أن تقرير لجنة الشعر الذي كتبه العقاد وذكرى نجيب محمود قبل ما يقرب من نصف قرن وأحال بمقتضاه قصائد التفعيلة إلى لجنة النثر في المجلس الأعلى للآداب والفنون ، قد أصبح جزءاً من التراث بعد أن احتلت قصيدة التفعيلة مكانتها وحصلت على مشروعيتها من إتساع قاعدة جمهورها ونضج أجيال من الشعراء الذين نهجوا الطريق ذاته وجددوا وأبدعوا ، فان الأمر ذاته قد تكرر بعد عقود مع قصيدة النثر ودعاتها الكبار من أدونيس لسعدي يوسف ليوسف الحال وصولاً إلى الأجيال الجديدة ، وهما هو الزميل حلمي سالم الذي ينتقم كشاعر لهذا التيار يختار لنا نصوصاً من التراث العربي القديم والحديث لافحسب بحثاً عن تأكيد مشروعية هذه القصيدة ، وإنما أيضاً لتبييان غنى وكثافة هذا التراث الشعري الذي لا تعرفه أجيال جديدة من المبدعين أخذت تبحث عن جذور لها لتتبين صوتها المترددة في خاتمة المطاف .
ويواصل الصديق الأديب "شرف المصباح" ترجماته للقراءات النقدية لأناتولى بوجданوف الناقد السوفيتي عن الفن التشكيلي المصري ، وهو يكتب لنا في هذا العدد عن القرية المصرية في أعمال "راغب عياد" كاشفًا بروؤية ثاقبة وفهم عميق كيف أن :

• الطريقة الواقعية بالذات قادرة بصدق وعمق على الكشف عن المضمون المتعدد الجوانب للواقع ، والإعلان عن نضال الشعب في سبيل الحرية ..
• وتزامن التحرك إلى اليمين في الخمسينيات مع رفض مجموعة من الكتاب والفنانين التعامل المباشر مع الحياة ونسوا تلك التمازنات الإنسانية المبدعة التي عملت على إعلاء وتنشيط ورفع المستوى الفكري الرفيع للأدب والفن في مرحلة الغليان الاجتماعي السياسي ، وظهر تأثير النظرية الانحطاطية على الفن التشكيلي . إن ما يكتبه "بوجданوف" يطرح على الفنانين التشكيليين والنقاد أسئلة قديمة جديدة عن رسالة الفن ودوره ما زالتنا بحاجة لتقديم إجابات

مبدعة عليها ..

ولعل ما يكتبه لنا الفنان "أحمد عز العرب" عن مسلسل "أم كلثوم" أن يقدم إجابة مدهشة ومبكرة على بعض هذه الأسئلة الكبيرة ، خاصة وهو يعالج طريقة عمل التليفزيون الذي هو وسيط خطير الأثر على المشاهدين تحكمه في الغالب الأعم باعتبارات دعائية وسياسية مباشرة.

في "أم كلثوم" يبحث محفوظ عبد الرحمن من جديد في التاريخ ، لا عن ما يؤكد يقينه الفكري ، بل يصعب المشاهد معه لتجربة ابداعية مشتركة بينهما تعيّد بترو فحص الواقع وإثارة التساؤلات .. حتى أنه أثار اهتمام قطاعات واسعة من الشباب وصفار السن ، وهي ظاهرة اجتماعية جديدة بالتأمل والبحث في أسبابها قد تكشف لنا زيف الصورة التي تحفظها عن شبابنا الذي مازال يهفو إلى ما يبيث فيه مشاعر الثقة بالنفس وبالوطن. ثم يأتي عز العرب للسؤال الذي طرحنا شبيهها له في مقدمة هذه الكتابة: لا يمكن أن يكون مستقبل هذا الوطن نجماً غائماً بعيداً عن أعيننا وسط سحب الظلام الراهن ، وأن يكون شروقه قائماً وإن صعبت علينا رؤيته ؟ ربما.

وانشغلت القاهرة بدريداً لبعض الوقت : ودریداً مفكر لا يؤمن إلا بالستحيل لأنه يرفض الإيمان بالمكان .. فهو يدعو إلى تفكيك كل الافتراضات القائمة والنظر إليها من جديد في محاولة لتحليلها وإعادة التفكير في مفهوم الإنسانية وشكلها بوجه عام ..

هكذا يقدم لنا الناقد "عادل الحراني" فيلسوف التفكيكية " جاك دريدا" الذي زار القاهرة في الشهر الماضي وأثارت محاضراته جدلاً واسعاً بين المثقفين ، ومايزال مجمل عمله في حاجة إلى جدل أوسع ، إذ أنه حين يفكك العالم داعياً إلى التحرر من كل قيد أو شرط لا يملك تصوراً ولو أولاً لها لطريقة إعادة بنائه، مراهناً دائماً وأبداً على قدرات غير محدودة للعقل الانساني تحرره من كل ثبات .. بل ومن كل قيد حتى قيد الصراع الطبقى الذى هو واقع يعلى شروطاً وآليات ويفتح آفاقاً دون حدود ، يهرب "دریداً" إذن من المادية الجدلية التاريخية وقوتها التي ماتزال فاعلة رغم هزيمة الإشتراكية ، ويجد نفسه - ربما لهذا السبب بالذات - مشدوداً إلى مطلق مثالى حتى ولو كان

جامعة غير مشروطة كما قال في محاضرته لأولى في المجلس الأعلى للثقافة ..
وبدا كأن مثل هذه الجامعة تعيش معلقة في الفراغ ..

إن فكر ' دريداً ' على خصوبته وقدرته على إثارة الدهشة وتعدد منابعه
وثرانه هو تعبير عن أزمة كبيرى بامتياز تواجهها كل الفلسفات والأفكار على
الصعيد العالمي .

وفي عدد قادم سوف نفتح ملف التفككية ضمن الإسهامات الكبرى لما بعد
الحداثة وتجلياتها في الفلسفة والفن ، في السياسة وعلم الاجتماع والأدب ..
وهذا موضوع آخر لندوة « أدب ونقد » ..

وفي تحليل الناقدة الإسرائيلية التقديمية « إيلا شوهات » لصورة العربي
في السينما الصهيونية التي يترجمها لنا أحمد يوسف تقع على هذا الفهم
النزيف والدقيق لاختيار هذه السينما « للبدوى » ليكون تجسيداً لشخصية
العربي « الطيب » فهو لا يجسد فقط الصورة الفولكلورية للخيام والجمال ،
ولكن الأهم أنه إذا كانت القبائل العربية البدوية لها جذورها في تقاليد
الشرق ، فإنها بطبيعتها المرتحلة وغير المستقرة ، ليست لها أية جذور في
الأرض لذلك فإنها لا تمثل خطراً أو تهدىداً حقيقياً على المزاعم الإسرائيلية
بالسيطرة على أرض فلسطين وامتلاكها .. وهو الاستنتاج الذي يعيينا مرة
أخرى وليس أخيراً إلى السؤال الذي غالباً ما يتغاضى عنه دعاة حيادية الفن
وعزلته الكاملة والمطلقة عن السياسي .

ما وظيفة الفن ورسالته ؟

حتى لو كان المرء يكتب شعراً لكن لا ينتجر مثلاً يفعل « محمود خير الله »
فإن هذه وظيفة ورسالة تستحق عناء فحصها في محاولة للتوصيل بإجابات
مبتكرة .

فما أكثر أسئلتنا نحن الذين نكاد لأنوقن ونكاد لانشك ...

المجزرة

ما ف



عرب العولمة ، وعولمة العرب

حوار مع المفكر السوري الراحل:

نايف بالوز

إعداد:

سربيست نبى

الدكتور نايف بلوز، الذي فقدناه قبل برهة وجيزة، أشهر من أن يعرف للقراء والمثقفين العرب، فهو أستاذ جامعي يعيش في قلوب وأفكار العشرات من طلابه الجامعيين ومن الجيل الشاب الذي تخرج على يديه في الجامعة السورية. وبين هؤلاء من يسهم بجدية في الحركة الفكرية العربية، ويغنى بعطاته المتميّز مسارات البحث العلمي في سوريا والعالم العربي. وبعد هذا، وربما قبله تميّز نايف بلوز منذ سنين شبابه الأولى بعشقه للفلسفة والبحوث الفكرية ذات الصلة بواقعنا العربي المعاصر. ولا نحسبنا نغالى إذا قلنا إن الدكتور نايف بلوز كان أحد الباحثين عن النسخ الصاعد في ثقافتنا العربية ليس في سوريا وحدها، بل العالم العربي كله. وقد أسهم منذ الخمسينيات في جدلاته المتميّزة وحواراته التي لا تنتقطع بالبحث عن الحقيقة، واختلف مع أصدقائه ورفاقه حول طريقة الوصول إلى الحقيقة، ولكنه لم يتذكر لها قط. إن مفكراً بهذه الملامح يستحق منا كل تكريم حتى وإن اختلفنا معه. لقد كان هاجسه الأول حتى رممه الأخير أن يشارك الآخرين في إضاءة الطريق لجيئنا وللأجيال القادمة، ولم يتخل مطلقاً عن رايته في الدفاع عن حرية الفكر وحق الإنسان في الحياة الكريمة، وحق بلده سوريا وببلادنا العربية جمعاً، في أن يتحقق استقلالها الحقيقي، السياسي والاقتصادي والثقافي، ومن ثم تنتقل إلى حيز العطاء للعالم، والتلاقي السليم وعلى قدم المساواة مع الأطراف الأخرى على صعد مختلفة وأهمها على الصعيدين الثقافي والحضاري. والمهم أن الفقيد لم يكن يوماً على حبه لوطنه وأهله، من دعاء الافتراق على الذات. ولكنّه كان يرى في تعزيز الذات والثقة بالنفس الانطلاق نحو الآخر، والشرط الأولى لكل تفاعل ثقافي وحضاري إنساني.

والجوار الذي نقدمه اليوم إنما هو تعبير أصيل عن روح السجال لدى نايف بلوز، تعبير فيه قدر كبير من الحب للحقيقة والوطن، وللطرف الآخر في الحوار اختلافاً واتفاقاً. وموضوع الحوار الذي أجراه وأعده الكاتب سرّبست نبي يتناول إحدى قضایا الساعة بالنسبة لعالمنا العربي ونعني بها «العزلة» التي لا تزال في حاجة إلى بحث الكثير من جوانبها وتثير ذلك في مسارات تطور بلداننا المستقبلية.

أولاً: كيف تفسرون انهماك الخطاب الفكري والسياسي العربي الراهن ، بمشكلة العولمة؟ ألا يثير شيوخ استخدام هذا المصطلح بلبلة والتباساً؟ . إن الاهتمام في الوسط العربي بظاهرة العولمة، كان نتيجة البليبة الواسعة ، التي أحدثها سقوط الاتحاد السوفييتي ، وتراجع حدة الحرب الباردة على أثر ذلك، والنتائج المحدودة البائسة ، التي نجمت عنها سياسات تجاوز التخلف في الب丹 النامية (فشل التنمية) . وأخيراً تعاظم دور الشركات المتعددة الجنسية في العالم أجمع من وجهاً وانحسار دور الدولة الوطنية من جهة أخرى . كل هذا ولد مقداراً من القلق والالتباس والفراغ أمكن معه قيام الرأسمالية بهجوم أيديولوجي أكثر قوة ، اعتمد بالدرجة الأولى على مبدأ حرية الأسواق والتجارة (أيديولوجيا السوق) . وكان هذا بمثابة متابعة لاحقة للسياسة الليبرالية الجديدة في ظروف تقدم تكنولوجيا أجهزة الاتصال والمعلوماتية.

لقد عرف كل هذا تحت عنوان العولمة . وشمة من يعتقد أن من أبرز ما يميز هذه العولمة الجديدة ازدياد العلاقات المتبادلة في تبادل السلع والخدمات ورؤوس الأموال والبشر والمعلومات والأفكار والقيم . وفي محاولة تفسير هذا الوضع الجديد ينوه الآن بأن البشرية عرفت هذه الميل منذ حوالي خمسة قرون . إلا أنه ظهرت في ربع القرن الأخير ملامح جديدة لصالح العولمة منها افتتاح مناطق كانت معزلة سابقاً ، وحدوث زيادة كبيرة في تنوع السلع والخدمات ومجالات الاستثمار وأزيد من عدد السكان . وقد تم إلى جانب التبادل المتزايد في السلع ورؤوس الأموال ، تبادل المعلومات والأفكار والعادات والناس .

كانت القوة الحاسمة المهيمنة في عملية انتقال السلع ورؤس المال والمعلومات والأفكار على نطاق العالم بأسره ، الشركات المتعددة الجنسية وعلى جانب كبير من الأهمية الوقوف عند تغير دور الدولة التاريخي . فمنذ خمسة قرون ظهرت الدولة القومية واستكملت إنجاز مهماتها بالسيطرة على السوق الوطنية . وكما حلّت الدولة ، كتعبير عن انتصار البرجوازية الوطنية على الإقطاع تحلى اليوم الشركات متعددة الجنسية محل الدولة مقللة من شأن الوطنية والقيم القومية في توجهها الإيديولوجي . وهي تقوم

بالترويج الايديولوجي لأفكار ومفاهيم نهاية الايديولوجية ونهاية التاريخ والقربة العالمية المزودة بوسائل الاتصال والاعلام الأكثر حداً، وبإثبات دور المؤسسات المتعددة الجنسية كمتدوق النقد والبنك الدوليين بمجددة كتاباً بروجور لافكار العولمة . إن شعار الليبرالية القديم «دعا يعمل دعا يمر» يتحول إلى قانون ثابت يتصرف بإطلاق الدولة الحرية للمواطنين في نشاطهم الاقتصادي والامتناع عن وضع العراقيل أمامهم . الدولة الكينزية ، أو دولة روزفلت ، التي سادت منذ الثلاثينيات حتى السبعينيات ، عمدت إلى تغذية شعور الولاء للوطن، ووجدت أنه من الأقرب لها لا إثارة العمال ، بل الاعتناء بهم لتسويق المنتجات الآخذة في التزايد ، إلا أنه في مطلع السبعينيات دخلت الدولة الصناعية ، التي أتاحت إصلاح ما دمرته الحرب في تنافس جدي . ومنذ أن أصبحت الشركات متعددة الجنسية تتخطى السوق الوطنية الضيقة إلى العالم بأسره وأصبح يوسعها استخدام التقدم التكنولوجي لجعل العالم كله سوقاً لها . طرأ تغير جديد على دور الدولة وحلت الدولة التاثيرية محل الدولة الكينزية.

فالمطلوب الآن تقليل الإنفاق لتمكين هذه الشركات من غزو العالم ، فيما كان يبدو احتفاء لدور الدولة كان في الحقيقة تقليل الدورها في الاقتصاد ، وضمان حرية التجارة وحرية تنقل رؤوس الأموال ، وتهديم الحواجز التي سبق للدولة أن أقامتها . إن السوق الوطنية لم تعد كافية أمام الشركات متعددة الجنسية ، وعلى العمال أن يقبلوا بارتفاع معدلات البطالة وقد يجبرون على هذا إذا اقتضى الأمر .

* مع كريستوف كولومبس أم مع جيرارد فورد .. .

يتحدث بعض الباحثين عن العولمة ، التي بدأت منذ خمسة قرون باكتشاف أمريكا ، وتتجلى الآن كظاهرة في كثافة المبادرات التجارية والمواصلات المتعددة وينظر إليها اليوم بوصفها تبعية متبادلة تخضع المجتمعات للتوسيع العالمي للرأسمالية.

ويمكننا الحديث عن عملية قانون القيمة في سوق تقتصر على الرساميل والسلع . في عام ١٩٤٥ ، أي بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة ، أعيد إنتاج العولمة بسمات جديدة، ويمكننا بصرف النظر عن أشكال سيطرة رأس المال

على العجل، الحديث عن مرحلة ميركانتيلية- تجارية تبعتها مرحلة صناعية كبيرة، وأخيراً مرحلة تاييلرية- فوردية . وبداء من عام ١٩٨٠ دشت مرحلة العولمة والمعلوماتية.

إن تقدم العولمة السريع بعد الحرب العالمية الثانية وتكتفها يظهر أولاً في التجارة الخارجية وثانياً في التكنيك . وتنعمق هذه العولمة بتكتيف مبادلات اقتصاد الأقتصاد العالمي الرأسمالي ، الولايات المتحدة، اليابان ، السوق الأوروبية . ويمكن القول إن أزمة العالم الثالث هي نتيجة للتوسيع العالمي. للرأسمالية باتجاهها ، أي للعولمة . وإذا كانت العولمة تقاس بالتجارة الخارجية للرأسمالية باتجاهها ، فإن صادرات الولايات المتحدة إلى العالم الثالث بلغت عام ١٩٨٠ حوالي ١٦٠ مليار دولار وكانت صادرات اليابان في العام نفسه ١٧٠ مليار دولار وأوروبا ١٠ مليار دولار . ولا يمكننا سوى إبراز دور العولمة النشطة التي تتمحور حول بلدان الثنائيين أو النمور السبعة ، التي بلغت قيمة تعاملها التجارى ٧٠ مليار دولار سنوياً . ونحن نتحدث هنا عن التجارة الخارجية لأنها مؤشر تكشف العولمة في التكنولوجيا والمال والثقافة . والمواصلات والجغرافية والتسلع والبيئة.. إلخ.

إن القفزة التي أذهلت العالم هو ما حدث في آسيا الشرقية، وقد كانت شرة العولمة والافتتاح على السوق الرأسمالية العالمية ، المتطلعة إلى أكثر مناطق العالم اكتظاظاً بالسكان ، وأكثرها استجابة لمناخ العولمة . لقد تدفقت الاستثمارات الأجنبية الخاصة إلى هذه المنطقة القادرة على امتصاص التوظيفات الخارجية (اتساع السوق، رخص اليد العاملة، الاممـاءات الضريبية) والاندماج في السوق العالمية.

وبحسب دراسة البنك الدولي ، وصل معدل النمو السنوي وسطياً ٥٪ بين عام ١٩٨٧ و ١٩٩٦ وبلغت حصة النمور السبعة ١١٪ من حجم التجارة العالمية ، وأصبحت تشكل ٢٢٪ من حجم إنتاجها ، وتضاعفت الأجور عدة مرات خلال ٢٠ عاماً (١٩٦٥-١٩٩٥) . وفي يوم كابوسى قاتم صحت هذه الدول من حلم الرواج الاقتصادي غير المسبوق بما أوقع الخسائر الهائلة في الأسواق العالمية ، وأدى إلى هروب الاستثمارات الأجنبية . فدعماً رئيس الوزراء الماليزي مهاتير محمد إلى التصدى للأمبريالية الجديدة في الأسواق العالمية

. وانتقد النظام التجارى资料 العالمى وأعمال المضاربة ، التى لجأ إليها المضاربون بالمال . الذين يسعون وراء الإشارة على حساب الازدهار الاقتصادى للدول النامية وقال . لقد ذهبت كل جهود جنوب شرقى آسيا هباء . وهاجم بعنف المستثمرين العالميين . وعلى رأسهم قطب المال الأمريكى المضارب جورج سوروس .

يشير الآن معظم الخبراء والملقين على ما جرى ، إلى افتقار معظم دول جنوب شرق آسيا إلى الضوابط ، التى من شأنها حماية أسواق العملات والأوراق المالية ، نتيجة هيمنة توجهات العولمة والسوق المفتوحة ، وإلى تبعية عملات معظم دول جنوب شرق آسيا إلى الدور الأمريكى . وبسبب هذه التبعية ارتفعت أسعار الصادرات وبدأت المصارف المركزية تعمل ضد مصلحة القطاع الصناعي فى هذه الدول وذلك من خلال المحافظة على مستوى نسبة الفائدة ، لكن المستثمرين الأجانب بدأوا بسحب أموالهم . وقد تبين لها أن الارتباط بالدولار جعلها مرتبطة بعلاقات قوية مع السياسة المالية الأمريكية . وتبيّن أيضاً أن النظام الاقتصادي资料 المعاصر ، غير قادر على التحكم بحجم هائل من الأموال الهائلة فى الأسواق المالية . ومع اشتداد ظاهرة العولمة اشتدت حركة الاستثمارات الأجنبية . وظهر العديد من الباحثين عن أسواق تقدم أقصى الأرباح بأقصر الأوقات . والمضاربين يراقبون ويحددون الوقت المناسب للانتقال من سوق إلى أخرى . وهنا يكون دور وسائل الاتصال والمعلوماتية على أشدّه فى البلدان التي تفتقد فيها الدولة . وقد أصبحت معرفة القدرة على حماية مشاريعها ، كما يكشف أيضاً عن أهمية دور الدولة ودور السياسات الوطنية الدائمة ، الذي يحول دون ضعف المراقبة والوعى بحركة الرساميل الأجنبية واتجاهها إزاء الاقدام على سياسة مالية محددة . وقد ذكر رئيس وزراء ماليزيا مهاتير محمد الوسائل التي يجب أن تتخذها الدول المواجهة بعض أوجه العولمة ، وكلها تدور حول أهمية دور الدول في التصدى للشركات متعددة الجنسية ، مثل الاعتماد على الامكانيات الوطنية وضرورة تفاون الدول النامية لجعل النظام العالمي المعاصر أكثر إنصافاً فى تعامله بما ينسجم مع المصالح الحيوية لهذه البلدان . ووضع قواعد لتنظيم التعامل بالعملات وتعزيز الإشراف الدولى على تجارة العملات . وقد جاء في

بيان مؤتمر القمة لمجموعة الدول النامية في كوالالمبور في العام الماضي أن العولمة يجب أن تفضي إلى نعطف تنموى أكثر عدلاً واستدامة . وعلى الدول النامية (١٥) في كوالالمبور ، ومؤتمر (٤٨) دولة في فيتنام و(٤٥) دولة في الكومونولث . جرى فيها كلام كثير ضد هيمنة القطب الواحد ، أى الولايات المتحدة الأمريكية وضد العولمة.

إن ما تقدم يعطى تفسيراً كافياً لأنهماك الخطاب الفكري والسياسي العربي بمشكلة العولمة التي يقال عنها الآن بأنها أمر لا يمكن إيقافه وأنه يقبل علينا . إن تحديد أبعاد العولمة وأخطارها يوضع الحاجة إلى التحرر من الببلة والالتباس ، وضرورة تحليل ظاهرة العولمة بما يضمن توافر شروط مواجهتها . ومنع هيمنة الرأسمالية الأمريكية.

ثانياً: تأسس «العولمة» على تصدير رؤوس الأموال فضلاً عن التقانة ، ما الذي يميزها عن «الإمبريالية» ، التي كان من أبرز سماتها تصدير رؤوس الأموال؟ هل تمثل مرحلة ثالثة نوعية لسيرورة النظام الرأسمالي العالمي .. ما أبرز خصائصها النوعية؟ هل هي مجرد ظاهرة سياسية أم اقتصادية أم إيديولوجية .. أم كل ذلك؟

هناك بعض التشابك بين العولمة والإمبريالية ، ولكن كلاً من المفهومين مختلف عن الآخر . وقد سبق للسيد الدكتور اسماعيل صبرى عبد الله أن نشر موضوعاً بعنوان «الكوكبة» (العولمة) الرأسمالية العالمية في مرحلة ما بعد الإمبريالية وتطرق فيه بوضوح إلى الفرق بين الامررين ، بين الإمبريالية والعولمة . وقد صدر هذا المقال في العدد ١٩٩٧ من مجلة «المستقبل العربي» وفي العدد الرابع من مجلة «الطريق» ١٩٩٧.

«علوم آ» لينين هو الذي أبرز ظاهرة الإمبريالية بوصفها المرحلة العليا في تطور الرأسمالية ، وكان متاثراً بوجهة نظر ماركس ، الذي كان يأخذ في الحسبان اتجاه الرأسمالية إلى التشكل الاحتلاري . وقد أبدى لينين اهتماماً كبيراً بفكرة تقسيم العالم تبعاً للمصالح القومية للدول الأوروبية ، وقد امتدت هذه الفترة من أواخر القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين . وفي هذه الفترة سيطرت بعض الدول الأوروبية على أفريقيا واتسمت هذه السيطرة بطبع المنافسة بين الدول القومية الإمبريالية ، التي اعتمدت على

التعصب القومي لدى شعوبها وتشجيعه . ولهذا يصلاح القول بأن الحربين العالميتين قد نشبتا بهدف إعادة تقسيم العالم وتوزيعه بين الدول المتحاربة والمتناقض على المستعمرات . وإذا عدنا إلى الوراء نجد أن واشنطن حين اعلنت مبدأ موئل لم تنه تحكم الدول الأوروبية بأمريكا الشمالية والجنوبية فحسب بل قاتلت أيضاً بمحاربة المكسيك وانتزعت منها أقاليم تعتبر الآن جزءاً من الولايات المتحدة . وقد أخذت اليابان بتطوير اقتصادها وقوتها العسكرية قبل وبعد البيزيمة ، التي أحققتها بروسيا عام ١٩٠٥ ، وقادت بضم كوريا والتغلب على منشوريا (الصين) . وقد تبين لليدين في محاولتهما ما يحدث أن الرأسمالية قد دخلت مرحلة الاحتكارات ، التي سيطرت على اقتصاد الدول الرأسمالية المتقدمة والاستعمارية ذات الأيديولوجية القومية والمراحل الاحتكارية تعنى بالدرجة الأولى بروز النشاط المالي المت العاظم الذي اتصف بـ الاحتكارات الكبيرة وممارسة التأثير الكبير في سلوك الشركات الصناعية وتوجهاتها . فبعد أن كان الأمر يقتصر على تصدير المنتجات الرأسمالية الصناعية ، أخذت الاحتكارات أيضاً بتصدير رؤوس الأموال . وقد ظهرت أهمية هذا التحول حين تبين أن العائد أعلى بكثير من عائد الاستثمارات داخل البلد الأصلي .

ومن خلال دراسة لينين هذه للأمبريالية وقيام الاحتكارات باستغلال شعوب المستعمرات استغلالاً لا حد له ، دعا إلى التحالف بين حركة الطبقة العاملة الأوروبية وحركات التحرر الوطني في المستعمرات ، ولكن قيام التضامن الأممي بين بلدان العالم الثالث والطبقة العاملة الأوروبية لا يلغي الواقع أن الإمبريالية قد تحكمت بالعالم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . حل لينين الأمبريالية وأبرز دور المصارف والرأسمال المالي وتصدير رؤوس الأموال . إلا أن الإمبريالية التي حلّ لها لينين قد اختلفت الآن بعد التحرر السياسي لمعظم بلدان العالم الثالث ، لكن هذا لا يعني زوال الاستغلال الرأسمالي ، بل إن الرأسمالية تزيد اليوم في حجم الاستغلال وبتكلفة أقل مما كانت تتحمله في الماضي وذلك عن طريق العولة .

* العولة هي إمبريالية ما بعد الاستقلال ..

تبهر العولة اليوم في المقدمة ، بوصفها الشكل الأنسب لاستثمار دول

العالم بعد حصولها على الاستقلال . إن العولمة هي بمعنى ما امبريالية ما بعد الاستقلال . وتختلف الشركات متعددة الجنسية ، التي تعتبر الأساس الاقتصادي بعدها أمور أبرزها .

- إن الشركات متعددة الجنسية لا تتمسك « ظاهراً » بالطابع القومي الوطني . الذي كانت تتسم به الاحتكارات ، التي كانت تدعى بأنها تتولى نمو الاقتصاد القومي ب بحيث يغدو التاريخ صراعاً بين الأمم والقوميات . والشركة متعددة الجنسية تنتشر في عدة دول دون إبراز أفضليّة المصدر القومي الأول . وهذا الجانب القومي هو ما تحاول أن تتجاهله العولمة وإن كنت لا أعتقد بأن العولمة الأمريكية مثلاً ، تتجه إلى ما يتعارض مع مصالح الاقتصاد المحلي القومي الأمريكي . إن الشركات متعددة الجنسية تحصل على تمويل محلي من البلدان التي تسع بالعمل فيها ، وتحتسب مدخلات كبيرة من بلدان العالم الثالث ، وتبيع أنواع شركاتها للمواطنين وتقترن من البنوك . وقد تختفي نسبة الشركة إلى جنسية معينة . ويبعد الأمر كأنه لا صلة بين الشركة والدولة ، مما يوحى بأن أغنياء العالم وهم المرشحون لكي يكونوا الأعضاء في الشركات متعددة الجنسية يؤلفون اتحاداً يعتمد على الدول الرأسمالية القوية وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية لاختراق الحدود الفاصلة والسيادة الوطنية للدول القومية ولا سيما في العالم الثالث ، التي لم تعد متحاسكة وقوية كما كانت قبل ثورة المواصلات المختلفة والاتصالات العالمية . فالحدود الفاصلة والسيادة الوطنية للدول القومية لم تعد الفاصل بين الكيانات . وحلت الوحدات الفاعلة كشركات متعددة الجنسية محل الدول العملاقة . وليس ثمة مجال للتكييف بالنسبة للكيانات الصغيرة . فالدول التي تسعى العولمة لتحجيم دورها ينبغي أن تثبت زيادة دورها الفاعل سياسياً وآيديولوجياً وثقافياً للحيلولة دون إعادة هيمنة هذه الشركات متعددة الجنسية على مصير الوطن ومتابعة نشاط الاحتكارات .

- كانت الاحتكارات الامبرиالية مرتبطة دائمًا بصناعة محددة ، سواء اتخذت شكل الكاريبيات أو التروستات ، أما الشركات متعددة الجنسية ، فتتصف بتنوع وتنوع نشاطها بغية الربح سنويًا ، رغم احتمال الخسائر في أحد مجالات العمل والتقلبات في أسعار الأسواق . وليس ثمة ما يعيق

النشاط الاقتصادي - مع بقاء الحدود السياسية صورياً - من اقتحام الأسواق العالمية وال مباشرة بأعمال جديدة فيها.

- كانت الاحتكارات حذرة من التطور التقاني ، أما الشركات متعددة الجنسية فتعتمد اعتماداً كبيراً على التطور التقاني والتكنولوجيا ، ولذلك تولى اهتماماً كبيراً للثورة المعلومات والاتصالات، وتقوم بتمويل البحث العلمي وهذا ما يتجلّى في الإنفاق الكبير على البحث والتطوير العلمي في كل من الولايات المتحدة وألمانيا واليابان . لقد أصبح تقدّم المعرفة العلمية التقانية عاملًا حاسماً في الحياة الاقتصادية ، ويشار إلى هذه المعرفة التكنولوجية خصوصاً باسم حقوق الملكية الفكرية ..

- في عالم العولمة ، الذي لم يعده فيلة للاستعمار الامبريالي دور ، زاد النشاط المالي إلى حد كبير (التدخل المالي) ، ولم يعده للدولة وحدها الحق في خلق (سك) النقود، وبرزت وحدات نقدية صنعتها فروع مصارف من دولة تستخدم في دولة أخرى . ولا تخضع لرقابة البنك المركزي ، الذي كان له وحده الحكم والحق في إصدار العملة . ويقوم الناس بمساعدة البنك بالمضاربة في أسواق النقد وأسواق سعر الصرف المتغيرة باستمرار وتدفع ظروف بطيء التموي الاقتصادي إلى الحذر من الاستثمار الانتاجي مما يؤدي إلى استخدام فائض السيولة لديها في عمليات المضاربة في أسواق الصرف.

ينبغي التنويه الآن بأن بين ٥٠٠ شركة هناك ٤١٨ شركة تتخذ مقرها في ١٨ دولة عضواً في منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية DECD من أصل ٢٦ دولة تمثل الرأسمالية الأكثر أهمية في العالم . ومن بين أعضاء هذه المنظمة (سبعين دول كبرى) يقول بعضهم إنها مجلس إدارة اقتصاد العالم ، ولكن هذه الحكومات السبع لا تمتلك سلطة كبيرة على الشركات متعددة الجنسية ، التي يبلغ عددتها ٤٢٨ شركة . وهذه الشركات المتعددة الجنسية تقع في ثلاث دول كبرى : ١٥٣ شركة في الولايات المتحدة ، ١٥٥ شركة في الاتحاد الأوروبي و ١٤١ شركة في اليابان .

- وأهم ما تتميز به هذه الشركات في هيمنتها على اقتصاد العالم :
اشتداد وقع قانون التمركز الرأسمالي في ظل الرأسمالية العولمة .
٢- التزايد المطرد في حلول الآلات المبرمجة محل الإنسان (تقدّم تقني) .

- التناقض المتزايد بين زيادة الانتاج بنسبي عاليه (نتيجة التطور التكنيكى المتسارع) وبين انكماش السوق الداخلية الناتج عن تسريح اعداد كبيرة من العمال وانخفاض الأجراء، إن إيرادات ٥٠٠ شركة تساوى ٤٥٪ من الناتج المحلي الإجمالي لمجموع الدول المذكورة (١٩٩٥). كما أن مجموع إيرادات هذه الشركات يعادل ١٥٩.٩٪ من مجموع إجمالي الناتج المحلي لاثة وتسع دول تقطنها الأغلبية العظمى من البشر.

إن هيمنة الرأسمالية المعلولة على اقتصاد العالم وثقافاته تتجلى على الخصوص في دور الولايات المتحدة الحاسم وفي حماقتها جعل الشعوب في كل ما تفعل تقبل بتنمط الحياة الأمريكية ، أو بكلمة أمريكا الثقافة والعالم.

تقوم الرأسمالية المعلولة على اعتماد مبدأ مساندة الشركات متعددة الجنسية . وتسهيل أعمالها . وقد فرضت العولمة تخفيض عدد العاملين فيها على نحو رهيب . وبلغ الأمر حد تشغيل بعض العاملين في الإدارة والمعلومات بتوفير حاسوب للموظف في بيته متصل بحاسوب الشركة . وبدا عصر العولمة وكأنه توديع لعصر المصانع الثقيلة والمصانع الضخمة الملوثة للبيئة والاعتماد على الحجوم الصغيرة ، وثمة مرونة كبيرة لدى العولمة في التخلص من أي مصنع أو منشأة بنقلها من بلد إلى بلد آخر ، وسيتناقص من جراء ذلك عدد العمال ، وستتغير طبيعة أليات عملهم بفضل عمليات الاتصال عن بعد ..

* هل تدّع العولمة الدولة القومية كما توحى بذلك أحياناً إيديولوجياً السوق ..؟

لقد قدمت الدولة خدمات كبيرة للبرجوازية ، إذ مثلت الدولة إطاراً للسوق الوطنية ولمركزة الادارة القانونية والسياسية ، وما كان بالإمكان أن تزدهر الرأسمالية إلا بالدولة القومية ، وما كانت الامبرialisية وإيديولوجيتها التوسيعية ممكنة إلا بهذه الدولة القومية وكانت الدولة أشد بروزاً في مرحلة الرأسمالية القومية الامبرialisية منها الان كما يحاول انصصار العولمة أن يؤكدوا . وبفضل تلك الدولة أمكن شراء المواد الأولية بثمن بخس وبيعها بثمن أعلى في الأسواق في أرجاء أخرى للامبرialisية .
في العولمة تنزع الشركات متعددة الجنسيات ، هويتها القومية . وتجعل

من العالم سوقاً لها و مع إيديولوجيا السوق تختفي الوطنية، وهنا تعلن
حريصها على النزعة الإنسانية والكونية والحرية والليبرالية ، المتفقة مع
إدراجهما السوق الحرة، وهي تبدأ بالتعامل مع عمليات مصرفيه تصدرها
السوق دون الرجوع إلى سلطة الدولة . وهذه الشركات ما عادت في حاجة
إلى عبء الدولة للبريد والمواصلات لأنها أخذت تستخدم تقنيات الاتصال
الحديثة وما بعد الفاكس كالانترنت وما يماثلها من أجهزة الكترونية حديثة.
وهي بلدان العالم الثالث يبرز ضعف البرجوازية المحلية . للشركات أن يجعل
حكوماتها موقف بمساعدتها وحمايتها وإعفافها من الضرائب بما يتوجب
عليها

وتقوم هذه الشركات متعددة الجنسية بافساد ممثلي الدولة واستغلالهم
وجعلهم موظفين لديها لحماية مصالحها بغية استبعاد منافس الجنسية .
ويشاع الآن بأن رؤساء بعض الدول يحملون في أثناء زيارتهم الرسمية
عقوداً تجارية خدمة للشركات المعولمة.

وبينما يمكن أن نعد العولمة إمبريالية ما بعد الاستقلال ، ويمكن اعتبارها
مرحلة نوعية جديدة في سيروورة النظام الرأسمالي العالمي: ففي الماضي كانت
الرأسمالية قومية تتهم الحركة النقابية بالخيانة واليوم تشاهد أممية رأس
المال المعولم . ورغم البطالة الملحوظة في الاتحاد الأوروبي تجد أن بعض
الشركات متعددة الجنسية ، تنقل مصانعها إلى دول العالم الثالث معبقاء
الشركة من الناحية القانونية في دولة المقر ، وبيدى ممثلو هذه الشركات
التشدد عند حدوث إضرابات عمالية ، ويقولون إذا أتى العمال بما يضر
بأرباح الشركة . يكون الرد الفوري إغلاق المصنع ونقل النشاط إلى دولة
أخرى . اليوم مع ما شاهد من أممية رأس المال المعولم نجد بالمقابل ترققاً في
الحركة النقابية.

وشدة أقوال عمالية ترجع البطلة إلى الاستيراد من دولة آسيوية . وشعب
فنдан العمل يحمل العمال على قبول تنازلات الأجور . لقد قال انجلس ، إن
عامل المستقبل مهندس تنفيذ . وهناك من يقول إن بروليتاريا القرن القادم
ستكون من أصحاب اليابقات البيضاء . ولذلك على الحركة النقابية في أوروبا
أن تعيد النظر في أوضاعها وأن تفكك في مشكلات العولمة وترتقي إلى



مستوى الوعي الكوني العالمي أخذة في الاعتبار أوضاع العمال في العالم الثالث . والنظرة التقديمية تقتضى التضامن مع عمال العالم الثالث في نضالهم من أجل الديمقراطية والحربيات النقابية وتحسين الأجور الحقيقة . مع انتهاء الحرب الباردة تغيرت أمور عديدة ، انخفضت أسعار الموارد الطبيعية إلى مستوياتها ابان الكساد الأعظم (١٩٢٩ / ١٩٣٤) . تراجع نصيب الصناعة في البلدان الصناعية لصالح الخدمات وتتجه الصناعة إلى مجالات التقانة العالية . التي لا تستخدم سوى قدر محدود للغاية من المواد الأولية . إن الوعي البيئي اندفع إلى المطالبة بالتخليص من صناعات شديدة التلوث . علينا أن ندرك أن النفط كمادة أولية يسيطر المشترون على سوقها ، ويجب لا ننسى بأننا كنا نهدى على الدوام بقطع النفط عن الدولة التي تعاديها ، والأذى يقاطع الغرب بعض الدول المصدرة للنفط ليحررها من عاداته مثل ليبيا والعراق . ولقد تراجعت أوضاع عدد من البلدان إلى أقل مما حققه خلال المستويات من معدلات نمو . وما زال الفقر والجهل والمرض سمة أغلبية السكان في الجنوب . وقد وصلت الأوضاع في بعض الأقطار إلى وشك انهيار الدولة القوية .

ثم إن معونات التنمية أخذة في الزوال ، وليس من مهام الدولة في ظل إيديولوجيا السوق (العولمة) أن تستثمر وتنتفع ، بل أن تستمع للآخرين بذلك . ومع ازدياد سوء الأحوال يقوم بعضهم بتبديد الموارد في الخارج ، مؤكدين أن الفقر في الداخل يجب أن يستحوذ على معونات التنمية ، ولم تزل الجماهير مما قدمه الشمال من معونات إلا القليل . لقد فشلت التنمية واستقر الجزء الأعظم في حسابات الفئات الحاكمة لدى البنوك في الخارج . وبידأ من مواجهة العولمة تتراجع الدول أمام المصالح الاقتصادية لشركات العولمة التي تقييم أوضاع كل دولة في الجنوب وتوجهها ، وتزيد في حجم أرباحها من البلدان التي تم نشاطها إليها . وتعلن تلك الشركات أن مجتمعات العالم الثالث التي تعجز عن إنتاج غذائها أو شرائه لا تستحق البقاء . لهذا كله تتجلى أهمية الدعوة إلى مواجهة العولمة بالتكامل الاقتصادي العربي والتنمية الاقتصادية ، وبالاعتماد على العدالة الاجتماعية والديمقراطية كبديل رئيسي وضروري .

ثالثاً: هل تعنى العولمة أن الرأسمالية كنظام اجتماعي -سياسي لم تستند حركتها التاريخية وإمكاناتها؟

تاريخياً استنفت الرأسمالية مهمتها . وكثير من الاقتصاديين الاشتراكيين وغير الاشتراكيين كانوا يرون حتى قبل ثورة أكتوبر أن مشروع الاشتراكية هو المشروع المُقبل نظرياً في المستقبل ، ولكن هذا لا يمكن أن يعني فعلياً زوال الرأسمالية واقعياً . إن الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية أمرٌ عسير . وكان الماركسي الروسي الشهير بليخانوف يقول : إن ثورة أكتوبر لن تبني الاشتراكية ، وستكون في أحسن الأحوال أقرب إلى سلطة قبصية مؤقتة ذات لون أحمر . وكان لينين بالمقابل يبحث في ظروف شديدة الصعبوبة عن مسار ينقذ التجربة السوفيتية وهذا ما أوصله إلى «النيل» ، التي سادت في (١٩٢١-١٩٢٨) . هذا الأمر يدخلنا في مسألة البحث في المستوى السياسي والآيديولوجي والثقافي للتطور الاجتماعي والحضاري في روسيا في تلك الأثناء . ويقودنا إلى مسألة الصراع الآيديولوجي - السياسي الذي يتكون اليوم بين أنصار الرأسمالية وخصومها على اختلافهم.

يمكننا هنا الإشارة إلى أن الاشتراكية ، كمرحلة انتقال ما قبل الاشتراكية إلى الاشتراكية ، لم يحالفها الحظ سياسياً وأيديولوجياً بالبقاء . وهذه مشكلة تختلف عن أن الرأسمالية رغم كونها المنتصرة واقعياً الان على الاشتراكية . محكومة تاريخياً بالزوال ، وأن الاشتراكية وهي النظام الاجتماعي المهزوم واقعياً - مرشحة - أو هي قيد الترشيح مجدداً - تاريخياً للتحقق . وهذه المشكلة جديرة بالبحث المعمق واستخلاص بعض النتائج المهمة، مثل بنية الممارسة السياسية للتنظيم الثوري . وسلامة وصحة نشاط التنظيم الثوري وشعاراته ، اتساعه وتحالفاته ، علاقته بالقوى الديمقراطية . وينبغي هنا قبل كل شيء أن نقوم بالفصل بين عملية الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية كمشكلة نظرية عامة وعلمية خالصة وبين الاشتراكية كتجربة خالصة واقعية في بلد معين بالذات . ذلك أن التجربة السوفيتية ليست البديل الوحيد ، الشامل العالمي للرأسمالية يعكس ما يعتقد بعضهم . ويمكن إرجاعها إلى سلسلة ردود الفعل الصحيحة والخطأة على الوضع الخاص المسؤول ، الذي واجهه هذا البلد المُخالف كانت لا تتوافق فيه باعتراف الكثيرين ، على نحو

مناسب تروط بناء الاشتراكية . ولا يوحى فشل التجربة السوفيتية بأفكار خاصة حول أشكال أخرى لبناء الاشتراكية فحسب ، بل يفرض مناقشة هذه المسألة بدقة وعمق . ويجب التمسك حتى النهاية بأن الفشل هو فشل هذا الشكل الخاص . ولا شك في أن استخدام العنف العسكري في معارك الحزب البلشفى باستهراً ضد خصوم الثورة ، قد لعب دوراً حاسماً في إضفاء الطابع العسكري على توسيع دور الحزب القيادي وهيمنته على الدولة السوفيتية وإشاعة روح الامر العسكري في نشاطه وفي تأويل دينكتاتورية البروليتاريا وهذا ما أعطى البيروقراطية المستمدّة من عسكريّة التنظيم وتراث وتقاليدي القيصرية - الأوامر من أعلى ، الاصلاح من أعلى - أساساً قوياً جرى وفقه التوفيق بين البيروقراطية والديمقراطية المركزية . وهذه التجربة تتعرض ضرورة اجراء مناقشة مستمرة حولها وحول شروطها الذاتية والموضوعية ، وسائليب بنائها .. إلخ.

لا شك في أن تجربة الاشتراكية هذه قد فشلت بانهيار الاتحاد السوفيتى ، وتبقى تجربة الانتقال إلى الاشتراكية موضوعة في جدول أعمال كل بلد رأسمالى متقدم ، ولا يمكنها أن تتكرر على غرار التجربة السوفيتية (...) ومثلاً فشل التخطيط المركزى ذى النطء السوفيتى البيروقراطي ، المعتمد على الأمر الفوقي ، كذلك فشلت محاولة الاصلاح باقتصاد السوق ، ولم يكتب لها النجاح . وهذا يلقي ضوءاً على موضوع « حرية السوق » .

اعترف الماركسى البولندي الشهير أوسكار لانغه (1904-1968) وهو على سرير الموت فى لندن ، قائلاً : « لو كنت فى روسيا فى العشرينات ، لكنت دعّمت سياسة بوخارين السائرة فى طريق التطور التدريجى ، ولكنّ تصبحت بتحقيق أهداف أشدّ مرونة ومحدوّية مما فعل المخططون الروس . لكنى عندما أسترجع هذه الذكريات أسئل نفسى ، هل هناك بديل للسنوات الخمس الأولى العاصفة العنيفة ، التي لا مجال فيها للخيار البارد ولا للتخطيط الهادى؟ بودى أن أقول نعم لكنى لا أستطيع وليس عندي جواب ». إن عبارات أوسكار لانغه تدلّكم كانت ثورة أكتوبر الاشتراكية مطلوبة وحاسمة ومخيبة ، جاذبة لفئات واسعة ، مصيرية و MAVSAYIWA ، فظة لا رحمة لديها .. وتخطيطية مركزية أمراً من فوق . وجاء غورباتشوف أخيراً ، ليجمع

بين الامر العسكري البيروقراطي الموروث والديمقراطية ، التي يمكن أن تعيدها إلى اقتصاد السوق الحرة ، التاثيري الريغاني ، وإلى إحياء الصناعة والزراعة والتجارة والمالية بالاعتماد على هذه السوق . ودعا إلى التمسك بالحرفيات والحقوق المدنية . ولم تنقض عدة سنوات حتى اختفت الأنظمة الاشتراكية في أوروبا . واتجه الاتحاد السوفييتي إلى تفكك الحزب والجيش وجهاز الأمن والتخطيط المركزي ، لأن بنية الحزب بدت للكثرين العقبة أمام تحولات النظام . ولن يستطع العلة في النظام ذاته ، بل في الحزب البيروقراطي الذي أنشأه . واتسم مع الوقت ببعض سمات تاريخية وثقافية .

إن الحل الذي قدمته ثورة أكتوبر يشكو من عيوب يغدو معها القول ممكناً بعدم استنفاد الرأسمالية لحركتها التاريخية . لكن هذا لا يلغى كون الرأسمالية قد استنفذت مهمتها الاجتماعية باستنفاد حركتها التاريخية .

* الإمبريالية ، ثم العولمة مرحلتان لنظام اجتماعي واحد ..

أما الإمبريالية ثم العولمة، فهما مرحلتان لجأت إليهما الرأسمالية لمعالجة أزمة النظام الرأسمالي التاريخية . والدرس الذي يمكن استخلاصه هنا ، هو صعوبة التيقن من أن العولمة ستستطيع الصمود كما صمدت الإمبريالية في حياة النظام الرأسمالي . يقول ماركس في «بؤس الفلسفة» (١٨٤٦-١٨٤٧)، إن التنافس الرأسمالي سيؤدي إلى الاحتكارات ، كما أبان في «رأس المال» - تكشف رأس المال - وظهور الاحتكارات . وإذا كانت الإمبريالية قد ساعدت موضوعياً على قيام ثورة أكتوبر فإننا لا نستطيع الآن أن ننكهن يقيناً بما تحمله العولمة من مفاجآت للبشر . لكن يجدر بنا أن نلاحظ بعض الواقع الكبيرة . فبعد الحرب العالمية الأولى كان قسم كبير من بلدان العالم مستعمرات لبعض البلدان الأوروبية المنتصرة في الحرب وكان الكفاح من أجل الاستقلال هو المضمون الحقيقي لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية . وهو الملحة الكبرى التي أدت إلى استقلال شعوب العالم . اختتمت في السبعينيات - وشرعت معظم بلدان العالم الثالث بعملية تجاوز التخلف وتحقيق التنمية . وأيا كانت النتائج المتحققة حتى الان، فإن العولمة هي الشكل السياسي الإيديولوجي الثاني لتكيف الرأسمالية مع ظروف العالم الراهنة . ويمكن اعتبار العولمة الان تعميقاً لهيمنة أوروبا وأمريكا على العالم

. وبكلمة أدق لتناقض الشمال والجنوب والعودة بهذا التناقض إلى خمسة قرون خلت . هي التي حددت وجود الرأسمالية كنظام . وبهذا المعنى يصلح الحديث عن بعدين للنراكم الرأسمالي البدائي ولتحول البرجوازية إلى طبقة سامدة . البعد الأول الداخلي ، الذي يتضمن من خلال الصراع الطبقي في أوروبا بالذات . والبعد الثاني الخارجي . يكشف عن الصيغة الكولونيالية الاستعمارية للبرجوازية ، وهو ما تعبّر عنه الآن بعبارة عولمة رأس المال ، أي بمعنى دخول منتجات المستعمرات في التبادل التجاري العالمي .

أما كيف تحققت العولمة في أول أشكالها في فترة سيطرة أوروبا على العالم وكيف دمجت المستعمرة بالرأسمالية بأشكال دمج مختلفة ، الأشكال سابقة على الرأسمالية ، رأسمالية كولونيالية استعمارية فيها يت حول النشاط المحلي في المستعمرة إلى سلع رأس المال وحركته التجارية فمسالة طويلة ...؟ ويمكن اعتبار الاستعمار الكولونيالي مرحلة سابقة في عملية العولمة الكبيرة . وهكذا فإن العولمة في أول أشكالها ، وفي خصوصها لضفوط قهر غير اقتصادي ، تختلف عن العولمة الراهنة الآن وبعد استقلال معظم بلدان العالم لا تستطيع العولمة أن تلجم إلا في النادر - إلى وسائل غير اقتصادية كالعنف العسكري ، للهيمنة على اقتصاد العالم .

ولا يمكن فهم العولمة ووظيفتها كتجسيد لعملية الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المعلوماتي كما يقول السيد يسن . إن هذا تأويل غير سليم يشرح العولمة من خلال إبراز تطور أدوات الانتاج وقواء دون آية إشارة لبدل علاقةقوى المنتجة بعلاقات الانتاج . أى على غرار دعاة نظرية المجتمع الصناعي ، أمثال «فالت فايتمان» ، روستو(١٩١٦) في المجتمع ما بعد الصناعي) و«Daniell Bilel» ، (١٩١٩) و«Rymond Arzon» (١٩٥٠) الذين يفسرون عموماً ويحددون التطور الاجتماعي بفعل التطور التكنولوجي ، ودون أي اعتبار للعلاقات الاجتماعية ولعلاقات الانتاج بحيث يغدو الفرق هنا بين الرأسمالية والاشتراكية بوصفهما شكلين من المجتمع الصناعي ، غير ذى بال .

* العولمة ، بنية فوقية أم تحتية ؟ .

هنا لا بد من وقفة قصيرة عند العولمة بوصفها أداة سياسية أيديولوجية معينة . رغم محاولات دعاتها إبراز حتميتها وضرورتها التاريخيين

والاعلان بالاحاج بانه لا شئ يمكنه أن يصمد في وجه تقدمها باللجوء إلى الابتزاز والتهديد . إن العولمة ليست مستقلة عن الأساس الاقتصادي للتشكيل الاجتماعية المهيمنة في البلدان الرأسمالية ، بيد أنها تشكل بالدرجة الأولى جزءاً أساسياً من البناء القومي، السياسي - الثقافي والإيديولوجي الذي يعتمد على حرية السوق ، ويؤسس ما يمكن أن يسمى أيديولوجياً العولمة كوسيلة لاستغلال شعوب العالم . وإذا كانت العولمة وثيقة الاتصال بتقدم تكنولوجيا الاتصال والتجارة ، إلا أنها ككيان أيديولوجي مالي في آن واحد ، تحل محل الدولة الوطنية عبر الشركات المتعددة الجنسية ، تخضع الدولة القومية لها جاعلة منها سوقاً لها ، متعمسة بشعار الانفتاح الاقتصادي وحرية السوق ، وإن تغزو هذه الشركات أسواق العالم تعمل على ضمان حرية التجارة فيها ، وحرية تنقل رؤوس الأموال .

وتهدىم الحواجز السابقة التي أقامتها الدولة القومية . لقد أصبح العالم سوقاً للشركات متعددة الجنسية وعلى العمال أن يقبلوا - بطريقة من الطرق - نسبة ارتفاع البطالة الناجمة عن ذلك .

إن الانتشار الواسع للسلع والخدمات والأفراد والأفكار والمعلومات والقيم والرموز ، ومختلف أشكال السلوك تتحقق وتتم عبر الحدود المحلية والقومية . وهكذا يمكن القول ، إن العولمة هي ثمرة تلقائية لدرجة تطور القوى المنتجة والتكنيك ، وهي تنبئ عن تقدم قوى الرأسمالية ، التي تريد أن يجعل من التطور التقني منطلقاً لسياسة تحكم العلاقات بين الدول في العالم . وتعيد وبالتالي إنتاج نظام الهيمنة القديمة للرأسمالية العالمية ، وبخاصة في شكلها الثقافي والاجتماعي المؤمر . إن الحديث عن وحدة الأسواق والتبادل الشجاري بجهود الشركات متعددة الجنسية ووحدة الثقافة وفرض نمط الحياة الأمريكية بالدرجة الأولى يفضلها أيضاً ، هي مظاهر أساس في كون العولمة شكلاً جديداً للرأسمالية العالمية . ولكن إلى أي حد يمكن للعولمة أن تواجه شعوب الأرض؟ .

رابعاً : يسود هناك اعتقاد بأن ماركس سبق له أن تنبأ بالعولمة في «الإيديولوجيا الألمانية» و «البيان الشيوعي» بأن الرأسمالية أخذت بالتوجه نحو توحيد العالم اقتصادياً وثقافياً واجتماعياً .

يصعب على التأكيد بأن ماركس وإنجلز قد تنبأ بالعزلة في «الإيديولوجيا الالمانية». ففي «موضعات عن فویرباخ» التي كتبها ماركس قبل «الإيديولوجيا الالمانية» أخذ ينتقد الطابع التأملي الذي اتسمت به فلسفة فویرباخ . ومن هنا بدأ تحرره من الانثروبولوجية الفویرباخية التي انعكست في كتاب إنجلز «العاشرة المقدسة ١٨٤٤ - ١٨٤٥» إذ اعتبر العلاقات الاجتماعية الرأسمالية تشويها للطبيعة البشرية ، رغم إقراره ماركس وإنجلز بأن المجتمع البرجوازي يمثل مرحلة تاريخية ضرورية في مسيرة البشرية . وفي «الموضعات عن فویرباخ» يذكر ماركس عدم إدراك فویرباخ لدور الممارسة الاجتماعية في عملية المعرفة . ويتابع نقهء لفلسفة فویرباخ في «الإيديولوجيا الالمانية» معلناً أن فویرباخ كان ماديا في فهم الطبيعة حسب ، ولم يكن كذلك في رؤيته للمجتمع . ويسجل كتاب «الإيديولوجيا الالمانية» مرحلة جديدة يطرح فيها كل من ماركس وإنجلز المبادئ الأساسية للمادية الجدلية والتاريخية.

في «كتاب الإيديولوجيا الالمانية» تناول ماركس وإنجلز دور الانتاج في التطور ومساعي مفهومي القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، واعتبروا الصراع الطبقي ظاهرة حتمية تفضي إلى القضاء على الرأسمالية وتناقضاتها . في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٧ - وكانون الثاني (يناير) ١٨٤٨ - أُنجلز «البيان الشيوعي» الذي به تكتمل عملية تشكيل الماركسيّة وتبلور أساسها الفلسفى . في الشهر الأخير من العام الماضي نشرت مجلة *Der Spiegel* (دير شبيغل) الالمانية والجريدة الأسبوعية *Die Zeit* (دى تسايت) التي يشرف عليها مستشار ألمانيا الأسبق هيلموت شمبstedt ، مقالين يتحدثان عن مرور ١٥٠ سنة على صدور «البيان الشيوعي» وعن رؤية ماركس السابقة لفكرة العزلة . ويسود الاعتقاد اليوم في ألمانيا أن كارل ماركس كان أول من استشف في «البيان الشيوعي» ميل البرجوازية إلى العزلة في بنية العلاقات الرأسمالية . وأن أدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠) قد سبق له أن أشار إلى أن التجارة العالمية الرأسمالية قد وحدت السوق والعالم . وفي شباط (فبراير) ١٨٤٨ - وقت صدور البيان - قال ماركس: يحل محل الكفاف والانكفاء المحلي والانغلاق القومي ، اتصال شامل وتباعدات شاملة للأمم بعضها ببعض» والمنتجات

الفكرية للأمم تصبح ملماً مشتركاً . وضيق الأفق القومي وأحادية الجانب . يغدوان مستحيلين أكثر فأكثر .. من الأدب القومي والمحلي يتشكل أدب عالمي . والبرجوازية تدفع بتحسينها السريع لكل أدوات الانتاج والاتصالات، إلى أقصى حد. كل الأمم الأشد بربرية إلى عالم المدنية . وبكلمة تصنع البرجوازية العالم على صورتها ، ومع تطور الصناعة الضخمة تسحب من تحت أقدام البرجوازية الأساس نفسها ، التي تطلق منها في الانتاج والبرجوازية تنتزع قبل كل شيء حفاري قبرها فزووها وانتصار البروليتاريا أمران لا رد لهما». *

* البشر يصنعون التاريخ، لكن العولمة تريد أن تصنع الرأسمالية البشر والتاريخ معاً وعلى مقابها..

ليس ما نقدم نقداً اجتماعياً أو شكوى ، بل معرفة علمية جديدة بذلك العصر البرجوازي . كل المراتب والمناصب تتزول وكل سحر القديسين يصبح باطلاً . ويرغم الناس على رؤية وضعهم في الحياة وعلاقاتهم المتبادلة بعيون صافية يقظة . فالبيان الشيوعي يحرر الإنسان من الآلهة وأتباعها، والقيود والعبوديات ، ويرميها في سجن التاريخ . وهنا تتضخم المساحة التي يؤود فيها التاريخ دوراً خاصاً سواء أراد البشر أم لم يريدوا ، إنها مأساة لم يؤلفها أحد، ولكنها تشير أيضاً إلى المخرج . فال التاريخ ليس جدلية ذاتية الحركة (افتنة) بل مصنف للوعي ، والتاريخ يفتح بابه لمن يحسن الدق عليه ، وإذا لا ينسى الفرد أنه ليس كائناً مجرداً ، بل جملة علاقات اجتماعية وأنه ليس ذرة غير واعية مسلوبة عن وجودها الاجتماعي يغدو عندها في وعيه قوة منتجة تعم انتماءها إلى عالم المنتجين . إن البؤس الإنساني يستقر عندما لا يتصرف البشر كبشر ، بل يصتعمون بلاوعي كعوامل منتجة ليس غير . ويوضح ماركس فيما بعد ، أن رجوع رأس المال الذي يستهلك الناس ، يدفعهم إلى التحرر . إن العصر البرجوازي قد أطل وعلى التجارة الحرّة أن توحد العالم . ولا أحد يعرف يقيناً متى تدق الساعة . ومن المؤكد إن لكل أمر حدوداً . فحتى «جورج سوروس» أحد أكبر مضاربي العالم نقدياً في عالم العولمة يقول بعد آخر صفقة له: إننا في حاجة إلى قوانين ضد المضاربة المالية وإلا فإن كل شيء سيطير في الهواء .

إن النظام الاقتصادي الذي يرمي بالعمال خارج دائرة العمل ، لا يمكن أن يظل مقبولاً، في الوقت الذي أصبحت فيه البرجوازية وحدها قادرة على

صنع القرار . ولقد أعرب ماركس عن أهمية عملية تجذير العدالة والمساواة وحين أبرز فكرة أساساً عنده وهي أن المجتمع هو الذي يجب أن يعد تطور الفرد فيه شرطاً للتطور الحر للجميع . لقد كتب أحدهم أن قنبلة رأس المال تهدى الحياة على كوكبنا . وقد نشرت مجلة «لوموند ديبليوماتيك» بياناً لهذا الكاتب جاء فيه أن ٢٥٠ مليوناً يحصلون على نصف ما تجنيه البشرية قاطبة . إن المسألة تحتاج إلى أكثر من صرخات أخلاقية، وإلى أكثر من منظمة التجارة الدولية وصندوق النقد الدولي بعد ٢٠ عاماً على ظهور البيان الشيوعي سخر الفيلسوف الألماني «نيتشه» من التجارة الحرة والأمر الأخلاقي «الكانطي» ، فالتقدم يصبح عنده ممكناً عندما تقوم ثقافة واعية بادارة شئون الأرض كلها اقتصادياً . ويبدو أن الاحتلال واللامساواة في تطور الجنوب يتطلب قيام مؤسسات عالمية تخطط وتتولى وتحل المسائل العالقة في زمن الإنسان ذي الأفق العالمي . يقول أحدهم ، قد نستطيع الاستغناء عن فكرة البروليتاريا ، ولكن لا يمكننا الاستغناء عن فكرة الإنسان والحرية . وعن تصور سيطرة المستقبل على الحاضر والماضي ومعالجة مشكلات الأرض بوصفها ملكاً مشاعراً للجميع . إن وضع الحركة المستقبلية للأغلبية الساحقة هي مصلحة الأغلبية الساحقة هو الدرس الذي تركه لنا ماركس على اختلاف مذاهبنا ومشاربنا . والمحدث عن الوعي الذاتي ووعي الترابط مع الآخرين هو بكلمة أخرى المجتمع الذي يكون التطور الحر لكل فرد فيه شرطاً لتطور الجميع . وهكذا يصبح من المفروض على كل كائن بشري أن ينتج بوعي وليس كذرة مسلوحة ومنفصلة عن وعي الجماعة . بل كذرة تنحرف قليلاً انحرافاً يجعل الحرية هدفاً للجميع . وليس كذرة في جماعة معولة أو ضحية من ضحايا عولمة رأس المال .

خامساً: ماذا عن العولمة وقضية التنوير وحقوق الإنسان والحربيات والديمقراطية في العالم؟ .

- أهم ما يميز العولمة أنها حركة كونية عالمية ، لكنها إذ تصدر واقعياً وبالدرجة الأولى عن الولايات المتحدة ، وهناك يمكن مقرها ومركز نشاطها وإعدادها الأيديولوجي . تغدو حركة أمريكية تسعى إلى تحقيق الأغراض الرأسمالية الأمريكية . وقد تغدو كونيتها - الكوكبية - فتح طريق بالخصائص المحلية من هوية قومية أو ما يشب ذلك . وتحاول العولمة أن تظهر بمظهر

الوريث للتقاليد الديمocrاطية ، ولكنها لم تتورع في الواقع عن إيفقار شعوب عديدة وسحق هوية مواطنى العالم بأسره وخلق نسخ مكررة واستهلاكية تستجيب لإدارة الرأسمالية العالمية المتوجهة ، التي تشرع بالانطلاق من الولايات المتحدة الأمريكية وتعلن أنها مع وحدة السوق العالمية وحريتها وافتتاحها أمام الشركات المتعددة الجنسية . فحرية تنقل البضائع والرساميل والمعلومات والمهارات تبدو في نظرها تأكيدا على حرية الإنسان. حين يغلن أنصار العولمة ، أن العولمة قدر حتمي وأن المشاركة الإنسانية تتفق مع أرقى مطامع الإنسان ، يسعون بما يمتلكون من عنف وفظاظة إلى تهميش كل من لا يخضع لنظام العولمة الأمريكية . والعولمة الأمريكية هي أكثر أشكال العولمة احتواءً لضمون أيديولوجي ، فهي التي كانت لها الغلبة بعد الحرب الباردة ، وهي لا تتعلق أبداً أهمية على الاتصال بالصفة الوطنية . وهي أقرب ما تكون إلى الداروينية الاجتماعية السائدة في هذا المناخ حيث البقاء للأصلح والأفضل قادر على البقاء والارتقاء . وبكلمة أخرى البقاء لمن يمتلك أكثر ويستحوذ على أكبر قدر من السلع الاستهلاكية وأنماط الترف ، فضلاً عن متجرات التقانة والاتصال الإلكتروني . وكما يشير رهيف فياض في مجلة الطريق العدد الأول ١٩٩٨ ، تبدي العولمة اهتماماً بالتقدم العلمي لا كمظير من مظاهر تسكمها بالتنوير العقلي ، بل كوسيلة لتطوير تكنولوجيا أكثر تقدماً تسهم في خلق حاجات باستمرار وفي إنتاج سلع جديدة للسوق المعلولة الحافلة بالغربيات إن الاهتمام بالتقدم التكنولوجي ومنتجاته وتبديها السريع يجعل الاهتمام بالتقدم العلمي صفة مميزة للعولمة . والتشرجيع على التطور العلمي التقني لا يمكن أن يفهم خارج هذا الإطار . وإذا دققنا قليلاً في الأمر ، نجد أن التقدم التكنولوجي سببه الركض وراء الربح في حرية السوق العالمية دون تدخل الدولة القومية(..) فالعولمة تحول كل شيء من القيم الأخلاقية وحقوق الإنسان إلى كل ما هو ثابت صلب ، إلى سلعة تستهلك بسرعة وفق معايير السوق . وقبل أن تفك العولمة بالتنوير وحقوق الإنسان تهتم بمحاسنها الخاصة جداً وسلعها المتداولة في الأسواق (جينز - سروال - حذاء غليظ - بيبسي كولا .. إلخ) لكن هذه العملية إذا تحققت ، تجر إلى التبعية التامة ومحل الاستقلال والوطنية وتقرير المصير ، يحل القدر المعلوم والخضوع للسوق صانع المستقبل والمصير .

اما كيف تستطيع العولمة مواجهة قضية التنوير وحقوق الإنسان والحرابات الديمقراطية وهي تسعى إلى القضاء على كل خصوصية وذاكرة وأصالة، فما زالت لا يخلو من خداع ومخاولة وهذه المسالة ينبغي أن تتحول إلى مقاومة لكل أشكال التحكم بمنط حياتنا وتفكيرنا.

التنمية الثقافية والسياسي في مواجهة التعددية الثقافية والقومية..

العولمة لا ترتكز إلى أركان حرب تعمل في معركتها ضد خصومها . إنها حملة ؛ سائل واساليب وأنماط تعامل وترغيب وترهيب ، تسهل تغلغل الشركات متعددة الجنسية وهيمنته على الدول التي أصبحت أضعف منها بكثير . وهذه هي الامراكة الحديثة ، التي تقدس الجدة والجديد وتغيرينا بأحدث ما بنسجم مع العصر كما تقول ، وتنجذب به تكنيكيا . إنها تسعى إلى البيعنة على الأسواق والهويات الوطنية والثقافية للشعوب ، وقد تلقى - كما يبدو - مقاومة تتجدد باستمرار . ويجب أن نذكر بأن الباريسيين رفضوا أو منعوا تحويل مطعم تقليدي شهير إلى محل يقدم الوجبات الأمريكية . وبهذا سجلوا شكلا من أشكال مقاومة الامراكة أو العولمة . ومن المعروف أن الانفتاح على الشركات متعددة الجنسية والتحرر من الدولة أو العزة القومية باسم العولمة والسوق الحرة قد يbedo لبعضهم عملية تحرر إنساني وفعل حرية وانفتاح إنساني . وهكذا قد يخيل للمرء أن في العولمة ضربا من التنوير العقلى واحترام حقوق الإنسان والديمقراطية والموضوعية وعقلانية العلم والثقافة . وكأن ظاهرة العولمة ، فى ضوء ما تقدم ، تنتوى على موقف سلبي من الأصولية والتعصب الدينى واضطهاد الحرابيات من قبل الدولة .

ليس من السهل علينا التسليم بكون التحرر من الدولة وحلول الشركات متعددة الجنسية محلها هو التحرر الانسانى ، وبكون سطوة الشركات وتخفيتها وتجييد العولمة والتقالة تمثل تحقيقا للديمقراطية واحتراما لحقوق الإنسان . إن أيديولوجيا العولمة تكشف عن تعصبها وضيق أفقها فى مواجهة أية نظرة مخالفة لها . وربط تحرر العرب وديمقراطيتهم وتخفيتهم حدود التخلف بالعولمة يبني فى الواقع تسلیم مصيرهم للرأسمالية التي لا يرجى على يديها التحرر . وعدم إبراز العلاقة بين حركة العولمة والهيمنة الأمريكية لا يمكن إلا أن يصب فى مصالح الرأسمالية الأمريكية ويسيلة للهيمنة على البلدان

المختلفة بالدرجة الأولى.

ثمة لبيبرالية جديدة أخذت تسود العالم عبر العالم والتكنيك والتجارة ووسائل الاتصال المختلفة المتقدمة جداً . وأخذت تقتلع الحاجز أمام انتقال السلع والأفكار والثقافة بهدف التحكم أكثر فأكثر بمصالح الشعوب والقوى والبيئنة على مقدراتها ، بحيث تجعل ما هو خاص لديها عاماً، معولاً، أو تقوم بتذويبها في إطار هذا النظام الجديد . وهذا ما يجد تعبيره الأقوى في العولمة المؤمركة ، التي تقوم على إعادة إنتاج الهيمنة الثقافية والسياسية للرأسمالية الأمريكية على العالم . وما قد يبدو ، أحياناً ، من نسخ العولمة بدعوى التنوير العقلى وروح التجديد والنظام البرلاني والتعددية السياسية والانتخابات الحرة ، ما هو إلا تعبير عن رغبة في حرية جنى الارباح الباهلة وتثبيت النهب خاصة في تلك البلدان ، التي قبلت انظمتها بالتبعية للشركات والمؤسسات الرأسمالية وبحمايتها لها من الانقلابات المفاجئة ، التي قد يكون موقفها مغايراً ومضاداً لهيمنة تلك الشركات . إنها تهدف إلى تثبيت تلك النظم السياسية التي قبلت بالتبعية ، وإلى استقرارها وديمومتها بقائتها .

سادساً : كيف يستقبل الفكر العربي اليوم مشكلة العولمة؟ .

طرحت مشكلة العولمة على بساط البحث في أواخر الثمانينيات . إلا أنها في العالم العربي قد ظهرت بشكل حاد في العامين الأخيرين ١٩٩٧/١٩٩٨ ، في المؤتمر الذي عقد في القاهرة حول «صراع الحضارات أم حوار الثقافات» ، للفترة ١٢٧١ - ١٢٧٠ (أذار) ١٩٩٧ . وفي الندوة التي عقدت في القاهرة كذلك من ١٨-١٥ (أذار) (مارس) ١٩٩٧ تحت عنوان «العولمة والتحولات المجتمعية في الوطن العربي» . ثم في الندوة التينظمها في بيروت مركز دراسات الوحدة العربية من ١٨-٢٠ (كانون الأول) (ديسمبر) ١٩٩٧ بعنوان «العرب والعولمة» . وقد نشرت أهم أعمال هذه الندوات في مجلة المستقبل العربي وملحقاتها . كما أن مجلة «الطريق» قد نشرت في العدد الرابع ١٩٩٧ عدة مقالات مبعة حول الموضوع ، كما ظهرت في العدد الثاني من عام ١٩٩٧ وفي العدد الأول من عام ١٩٩٨ مقالات تمت بصلة إلى الموضوع ، ويمكن القول أن المثقفين العرب د. محمد الأطرش ، د. نبيل مرزوق ، د. جلال أمين ، الاستاذ رهيف فياض ود. إسماعيل صبرى عبد الله ، قد ألحقاً بعروضهم وانتقاداتهم .

هزيمة نكراء بالعولمة وأنصارها على اختلاف درجات صراحتهم في تناول وطرح هذه المسألة وتأويلها . ومن أهمهم الاستاذ يسین والدكتور صادق جلال العظم وبول سالم .

سمير أمين ، عولة مأorieة في مواجهة العولمة المؤمرة .^٩

في ندوة العولمة التي عقدت في القاهرة من ١٥ إلى ١٨ آذار (مارس) تكلم المحترف به في هذه الندوة، الدكتور سمير أمين ، قبین أن للرأسمالية نواة إيديولوجية تتلخص في أن الأسواق تنتج من تقاء نفسها نظاماً يميل إلى التوازن العام . وللدكتور أمين مدخلات كثيرة موجهة ضد العولمة التي تقوم على أساسها - حسب رأيه - امبراطورية الفوضى الرأسمالية . ففي عام ١٩٤٥ اعيد بعد الحرب العالمية الثانية بناء سوق عالمية «عولمية» بحماية الولايات المتحدة الأمريكية . وفيه تتجلى العولمة في كثافة المبادرات التجارية والمواصلات المتنوعة والقدرة الشاملة لوسائل التدمير . وقد حدث في إطار العولمة اختراق مثلث الأطراف من قبل الولايات المتحدة واليابان وأوروبا . وينجلي منطق توسيع الرأسمالية -حسب رأيه- في اقتصاد عالمي تقتله أطراف تابعة للنظام في المراكز . ويعتقد سمير أمين أن ضعف الرؤية الأوروبية - هنا نقص معرفي - يلعب ضد مصالح أوروبا ذاتها، فعلى الأوروبيين والأفارقة والعرب أن يقبلوا بتوظيف وحداتهم الإقليمية . وطريق بناء الوحدة العربية طويلاً ولكن ضروري لتقديم حل على مستوى المرحلة لمشكلات الشعوب العربية . وإذا كانت الولايات المتحدة ترى أنه لابد من السيطرة على النفط فلن تستطيع أوروبا لضمان استقلاليتها عن الولايات المتحدة، أن تلعب ضد المشروع الأمريكي إلا ورقة الصداقة مع الشعوب العربية . إن ضعف رؤية أوروبا لمصالحها المتقدمة مع تحقيق العرب لوحدتهم يخدم مصالح الشرك الأمريكي المنافس . وليس سوى عودة أوروبا إلى الرؤية الديغولية ما يساعد في انقشاع ضعف الرؤية وتعزيز التعاون الأوروبي - العربي . فهل هذا الضعف في الرؤية الأوروبية - النقص المعرفي هنا - هو في صالح تغلب العولمة المؤمرة ضد التكيف مع العولمة المؤدية ، ذات الأصل الديغولي ..^{١٠}

في مؤتمر «صراع الحضارات أم حوار الثقافات» الذي عقد في القاهرة من ١٢-١٣ آذار (مارس) ١٩٩٧ ، تغلبت هموم العولمة مما يدل على اهتمام المثقفين العرب المتعاظم بهذه المسألة . إن الشركات متعددة الجنسية تحصل



كل عام على كثبة هائلة من دخل العالم مما يهدد العالم بمستقبل مخيف في القرن القادم . وقد انفرد الغرب بضغط إعلامي كثيف يشار إليه أحياناً بالغزو الثقافي لصالح العولمة . وتبين في هذا الشأن مسألة المحافظة على البوية القومية الخاصة لواجهة تحويل الجنوب إلى عالم فقراء . وثمة إشاعات تقول بأن اتفاقيات دولية بين دول الشمال ودول الجنوب قد نصت على عدم السماح بمقاومة تيار العولمة .

في هذا المؤتمر بين السيد يسین مستشار مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية في الأهرام ، في كلمته بأن أشد مقومات العولمة تأثيراً هو تغيير طبيعة المجتمع من الصناعي إلى المعلوماتي ، جرياً مع اتجاه بارز لفلسفة التاريخ وعلم الاجتماع الأمريكي «مع روستو وبيل ، اللذين يريان في المجتمع الصناعي وما بعد الصناعي درجتين في التقدم التكنولوجي ، أي في تطور القوى المنتجة بصرف النظر عما بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج من علاقات ، وهذا ما ظهر بوضوح في مقال السيد يسین المنشور في مجلة «الطريق» ، العدد الثاني ١٩٩٧ تحت عنوان «موقع الوطن العربي من الموجة الثالثة» . باعتبار أن الموجة الأولى الزراعية والموجة الثانية الصناعية والموجة الثالثة المعلوماتية ، هي مراحل في تطور يخضع للتقدم التقني . قال يسین إن وسائل الاتصال كالانترنت أدت إلى ظهور وعي كوني وأحدثت ثورة معرفية . وأنبئ تفاؤل بهذه العولمة .

السيد يسین ، من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المعلوماتي^٩ .

على التقىض مما قاله السيد يسین بين د. محمود أمين العالم ، أنه يتبع أن تميز في العولمة بين كونها حركة كونية وبين كحركة هيمنة أمريكية هدفها مصلحة تلك الدولة العظمى . والعولمة كما هي الآن حركة أمريكية تسعى لتحقيق الأغراض الرأسمالية الأمريكية الجشعة . والواقع أن عدم تحليل العلاقة بين حركة العولمة والهيمنة الأمريكية لا يمكن إلا أن يصب في صالح الرأسمالية الأمريكية .

في ندوة «العرب والعولمة» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بتاريخ ٢٠-١٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧ كان السيد يسین أول المتكلمين في الورقة التي قدمها تحت عنوان «مفهوم العولمة» وهي الموضوع الذي سبق له أن أبدى تفاؤله به ، وأعرب عن اعتقاده بأن العولمة سوف تدفع

بالحوار بين الحضارات إلى الأمام . إلا أنه بعد فترة قصيرة، وبسبب الانتقادات التي تعرض لها كما يبدو ، وبسبب الحملة العنيفة التي شنتها مثقفون عرب وغير عرب على العولمة ،أخذ يبدي في الورقة التي قدمها إلى ندوة «العرب والعولمة» احتراساً أكبر موحياً بأن تفاؤله بالعولمة ربما كان شبهاً بانطلاق الأمـر عليه وتأخره في التمييز بين ما يقال عن بداية تشكل بعض ملامح حضارة عالمية ومصالح الشركات متعددة الجنسية ، التي تقود تحت شعار العولمة عملية إعادة إنتاج نظام الهيمنة الرأسمالي القديم . لكن ما تقدم لم يمنع السيد يسـين من أن يقول في ندوة «العرب والعولمة» في أواخر عام ١٩٩٧ : «إن العولمة تشير إلى العمليـة التـارـيخـية الكـبرـى ، التي تؤثر تـأثيرـاتـ بالـغـةـ العـمـقـ فيـ كلـ المـجـتمـعـاتـ المـعاـصرـةـ المـتـقدـمـةـ وـالـنـامـيـةـ عـلـىـ السـوـاءـ فـهيـ تـتـضـمـنـ تـعـيـقاـ فيـ مـسـتـوـيـاتـ التـفـاعـلـ وـالـاعـتـنـادـ المـتـبـادـلـ بـيـنـ الدـوـلـ بـيـنـ كـلـ الـأـنـظـمـةـ وـالـجـمـعـمـاتـ». في كلمته هذه لا تظهر الفئات التي تبادر إلى الدعوة للعولمة ولا الأهداف التي ترمي إليها . إن النظر إلى العولمة كتجسيد لعملية الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المعلوماتي يتضمن تفسير التطور الاجتماعي كتقدم تكنولوجي بصرف النظر عن المضمون الاجتماعي لهذا التطور . أي أنه متابعة للتـطـورـ الـاجـتمـاعـيـ كـخطـواتـ مـتـلاـحةـ فـيـ نـوـقـوـتـ الـنـتـجـةـ وـبـمـعـزـلـ عـنـ الـعـلـاقـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ الـخـلـفـةـ وـلـاـ سـيـماـ عـلـاقـاتـ الـانتـاجـ وـالـبـنـيـةـ الـطـبـقـيـةـ فـيـ الـجـمـعـ وـهـكـذـاـ لـاـ يـعـودـ فـيـ التـشـكـيلـ الـاجـتمـاعـيـ بـنـاءـ فـوـقـيـ وـأـبـدـيـوـلـوـجـيـ وـأـسـاسـ اـقـتصـادـيـ . وكلـ الشـورـاتـ الـاجـتمـاعـيـةـ كـانـتـ أـخـطـاءـ يـمـكـنـ تـخـطـيـهـاـ الـآنـ وـإـرـجـاعـ تـارـيخـ الـبـشـرـيـةـ وـالـجـمـعـمـاتـ إـلـىـ الإـطـرـادـ الـقـانـوـنـيـ فـيـ تـقـدـمـ التـكـنـيـكـ وـالـعـلـمـيـةـ الـطـبـيـعـيـةـ . وـلـاـ شـكـ فـيـ أـنـ التـكـثـيفـ الـمـتـزاـيدـ فـيـ التـرـابـطـ الـاـقـتصـادـيـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ وـالـثـقـافـيـةـ اـعـتـمـادـاـ عـلـىـ عـالـمـيـةـ السـوقـ يـفـضـيـ إـلـىـ تـوـحـيدـ أـنـمـاطـ التـنـظـيمـ الـاجـتمـاعـيـ وـالـيـاتـ الضـبـطـ وـالـاـنـسـاقـ الـحـقـوقـيـةـ وـالـاجـتمـاعـيـةـ كـمـاـ أـنـ الـمـازـاحـمـةـ الـاـقـتصـادـيـةـ الشـدـيـدـةـ تـخـلـقـ فـيـ السـوقـ الـعـالـمـيـ تـعـدـدـاـ أـكـبـرـ فـيـ أـسـالـيـبـ الـحـلـ وـالـابـتـكـارـاتـ الـجـدـيـدـةـ . إـنـ هـذـاـ التـعـدـدـ يـرـتـكـزـ إـلـىـ أـنـ قـوـانـينـ السـوقـ الشـامـلـةـ تـتـأـثـرـ بـالـمـؤـسـسـاتـ الـمـخـلـفـةـ تـارـيخـياـ وـبـأـنـسـاقـ الـمـعـايـرـ وـالـخـصـائـصـ الـثـقـافـيـةـ . وـقـدـ عـادـتـ وـتـيـرـةـ التـنـمـيـةـ فـيـ الـاـقـتصـادـ الـعـالـمـيـ إـلـىـ التـسـارـعـ بـعـدـ أـزـمـةـ الـدـوـلـ الصـنـاعـيـةـ (OECD)ـ فـيـ بـدـاـيـةـ التـسـعـيـنـيـاتـ .

وينوه السيد يسین بعوامل حاسمة في ظهور العولمة مثل انتشار المعلومات بين الناس وتذويب الحدود بين الدول وزيادة معدلات التشابه والتتجانس وتبادل السلع على النطاق الكوني. فكيف تحدث العولمة؟ وكيف يتم الانتشار الواسع للسلوك والخدمات والأفراد والأفكار والمعلومات والنقود والرموز ومختلف أشكال السلوك عبر الحدود، وهو ما تغذيه شركات متعددة الجنسية؟ يبرز الفرق في درجة السماح للأفراد باستخدام شبكة الانترنت وهذا يتوقف عند محاولة المفكر السوري صادق جلال العظم التعريف بالعولمة مبيناً: أنها تظهر عند الانتقال من عالمية التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية الانتاج. فالعولمة هي «حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جماء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها، وفي ظل سيادة نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ». والسيد يسین يجد بالاعتماد على هذا الاستشهاد ما يسمح له بالقول بأن العولمة هي في الجوهر درجة من التقدم التقني وما ينجم من في نتائج في مختلف جوانب الحياة. وبعد أن يذكر السيد يسین بأن العولمة خطوة متقدمة في المجال التقني، يمكن أن تفسر تفاوله السابق بها، يحاول أن يرى العولمة من خلال تجلياتها في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة.. إلخ.. هنا يبرر سؤال أساس: هل العولمة ثمرة تطور تكنولوجي يتبين عن تقدم إنساني متعدد الجوانب. كما يحلو لبعضهم أن يقول، أم أنها سياسة قوى اجتماعية رأسمالية تريد أن تجعل من هذا التطور التكنولوجي منطلقاً لسياسة تحكم العلاقات بين الدول؟ ويستحيل في هذا المجال التفاضي عن سياسة القوى الاجتماعية الرأسمالية التي تسعى إلى الهدف المذكور، أى يستحيل الفصل بين التطور التكنولوجي والقوى التي تستخدمه.

لقد وجد السيد يسین أخيراً في ورقة العمل التي قدمها في ندوة بيروت اوآخر عام ١٩٩٧ ما يسمح له، في ظروف مجادلات كثيرة، بأن ينتهي إلى القول، بأن العولمة تقويها الولايات المتحدة لإعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم الرأسمالي الامبريالي، متنازلاً بهذا ظاهرياً عن تفاؤله القديم بالعولمة. لكن هذه الاضافة لم تغير شيئاً أساساً من منطق تفكيره المستمد من نظرية «المجتمع الصناعي وما بعده» التي ترجع إلى روستو وبيل وأرون، والجدير بالذكر هنا، أن علاقة الولايات المتحدة بالعولمة وإعادة إنتاج نظام الهيمنة

القديم العالمي لم تخطر في الأقل على بال صادق العظم مطلقاً في بحثه عن «ما هي العولمة» فكان سبباً - لا أعرف طبيعته - حال دون ذكر الولايات المتحدة في موضوع العولمة!! ولا يخرج السيد يسین في عرضه لتاريخ العولمة، مستعيناً برولان روبرتسون (١٩٩٠ لندن) عن اعتبار العولمة ظاهرة تقنية مرت بخمس مراحل تنضاف إليها من الخارج العوامل السياسية والاجتماعية. وهكذا يختتم تاريخ العولمة، بالمرحلة الأخيرة الواقعة بين السبعينات والتسعينيات، حيث تبشر ظواهر لا يشار إليها إلى العلاقة أو الترابط القائم بينها، فكانتها بصدق تجمع عرضي للحوادث مثل الوعي الكوني . تخلف العالم الثالث، نهاية الحرب الباردة، مسألة حقوق الإنسان والمجتمع المدني والنظام الدولي والإعلام الكوني وبروز مسألة العولمة.

ويتوقف هنا للحديث عن بعد الكوني للمؤسسات والمجتمعات والثقافات وعلاقتها بالتقدم التقني ، وأول ما يلفت انتباهه هنا، الانترنت واعتباره ثورة معرفية في تاريخ الإنسان. مما يدل على أنه لم يستطع التحرر من نظرية «المجتمع الصناعي»، والأهمية الحاسمة لتطور التكنولوجيا والعلوم الطبيعية في تاريخ الإنسانية ، ولكن لا ينسى رأيه بصورة تامة إلى مدرسة فكرية معينة يتحدث عن تجليات العولمة المختلفة ، مثل الاعتماد المتبادل ووحدة الأسواق المالية والمبادلات التجارية والشركات متعددة الجنسية والتنمية في مختلف البلدان والهيمنة الأمريكية والديمقراطية والتعديدية السياسية وعلمية الثقة .. إلخ .. وفي هذا العرض الواسع للعولمة يشير الاستاذ السيد يسین إلى موقف الحزب الاشتراكي الفرنسي الرافض للعولمة منذ عام ١٩٩٦ في تقريره المتضمن نقداً عنيفاً للعولمة الأمريكية ، التي تقابلها من جهة أخرى عولمة مأorie تحاول مقاومة سيارة النمو الأمريكي ومواجهة العولمة المؤمركة بعولمة أوروبية يعمل الآلان بشكل خاص على قبولها ونقد الأمريكية . ويرجع كثيرون الآن أن العولمة المؤمركة كانت لها الغلبة على العولمة الأوروبية . ويذعن يسین في آخر كلمته إلى الحاجة إلى صياغة استراتيجية قومية عربية للعولمة وذلك التفاعل الحي الخلاق معها ، مع تنويعه بأن المناقشات الایديولوجية ترفض العولمة دون دراية كافية بقوانينها وهذه الاشارة إلى المناقشات الایديولوجية تثبت في رأينا أن العولمة ليست مستقلة عن الأساس الاقتصادي إلا أنها بالدرجة الأولى ظاهرة

إيديولوجية . قبل تقوم أيديولوجيا العولمة بإعادة إنتاج وتمكيل عملية سيطرة البرجوازية على العالم؟

صادر جلال العظم، التحول الرأسمالي العميق ، الانتقال إلى عالمية دائرة الانتاج وإعادة الانتاج .^٩

لقد ذكرنا أن السيد يسین ينتمي في شرحه للعولمة- ولعله لا يدرى- إلى المدرسة الأمريكية التي يتزعمها في فـ. روستو ودانیال بیل . ويرى في الانتقال من المجتمع الصناعي إلى المجتمع المعلوماتي عملية يتحكم فيها التقدم التقني أي تطور القوى المنتجة منفصلة عن علاقات الإنتاج.

كيف يمكن أن نفهم استشهاد يسین بصادق العظم وخاصة بعبارته ، التي تنص على أن العولمة هي « حقبة التحول الرأسمالي العميق للإنسانية جماء في ظل هيمنة دول المركز »؟ .. وما معنى القول الذي يذكره العظم « إن نمط الإنتاج الرأسمالي عند منتصف هذا القرن تقريراً إلى الانتقال من عالمية التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها . أي أن ظاهرة العولمة هي بداية عولمة الإنتاج؟ .. وعندما يذكر العظم « التحول الرأسمالي العميق » يقصد أنه يمس الإنتاج لا التبادل فحسب . وبهذا المعنى تكون « العولمة » رسملة العالم على مستوى العمق ، بعد أن كانت رسملته على مستوى سطح النمط وظاهرة قد تمت . .. وليس هذا فحسب ، بل إن ظاهرة العولمة هي « نقل دائرة الإنتاج الرأسمالي إلى هذا الحد أو ذاك إلى الأطراف » .. وكان لابد لحركية نمط الإنتاج الرأسمالي وديناميكته من أن تفتح آفاقاً جديداً لنفسها » .. وهي تأخذ الآن الشكل المزدوج لعولمة دائرة الإنتاج ذاتها ونشرها في كل مكان مناسب تقريرياً على سطح الكره الأرضية من ناحية . وإعادة صياغة مجتمعات الأطراف مجدداً في عمقها الإنتاجي هذه المرة .. هنا نتوقف قليلاً للتساؤل : هل يعني الانتقال إلى عالمية الإنتاج وتوسيع دائرة الإنتاج إلى الأطراف تصنيع العالم ، أم مثاذاً؟ .. ويجب ألا ننسى أن عملية تجاوز التخلف تتلخص بالتصنيع . فلمصلحة من يجري هذا التصنيع؟ لمصلحة رأس المال أم لمصلحة الشعوب المختلفة؟ .. فهل تمت المصالحة بين الطرفين ومن هو مالك وسائل الإنتاج؟ .. فهل المقصود أن العولمة أو الانتقال من التداول إلى الإنتاج تتفذ مهمة تجاوز التخلف؟ .. وهل العولمة

هي مشروع تنمية وتصنيع العالم الثالث؟ وما الجانب الانتاجي الذي تعدد العولمة للعالم الثالث؟ لا يوجد في البحث إجابة عن مثل هذه الأسئلة ، بل إن وجود الشركات متعددة الجنسية دورها لا يذكران هنا.

أما الانتقال من رأسمالية التبادل إلى رأسمالية الانتاج فيمكن أن يكون أحد جوانب العولمة على النحو التالي : البضاعة -كما يقول العظم- يمكن أن تكون من صنع شركة IBM ووضعت تصاميمها في كاليفورنيا وبنى هيكلها الخارجي في البرازيل واستخرجت موادها الأولية في الأرجنتين ، وجرى تصنيع قطعه في وحدات إنتاجية تابعة في تايوان ، وتم تجميع ذلك كله في ورشة للشركة نفسها في ماليزيا مثلاً..

نتساءل هنا، من المشرف على هذه العمليات ، ومن الذي يملك وسائل انتاجها ومنتجاتها؟ هل تخلت الرأسمالية عن سعيها للربح ، وعن الاستعمار بظاهره الجديد؟ وما معنى هذا بالنسبة للشركة متعددة الجنسية ؟ إن المسألة تتعلق هنا بالشركة متعددة الجنسية وتوسيع نشاطها ليشمل العالم، ويتردّد أنشطتها لا بالانتقال من التداول إلى الانتاج . فشركة الهواتف والتلفراف تملك عدّة شركات بجانبها شبكة CNN ولا تمنعها نشاطاتها المتعددة من تملك الصحف ومحطات التلفزيون .. إلخ وقد تعمد إلى الإشراف على عمليات إنتاجية . وبهذا المعنى يمكن الحديث عن الانتقال من التداول إلى الانتاج بوصفه حالة من حالات تعدد نشاطات الشركة متعددة الجنسية . فهل العولمة حقاً هي « الانتقال بالذات من التبادل إلى الانتاج » أم أن هذه حالة من حالات تعدد نشاطات الشركة متعددة الجنسية التي تسعى إلى الهيمنة على الدول والحلول محلها أو فرض ما تراه مناسباً عليها . وتجربة النمور أو التنانين الآسيوية الخمسة أو الستة تدل على أن العولمة لم تكن بصدّر الانتقال من عملية التبادل إلى عملية الإنتاج ، بل في تكثيف التوظيف المالي والتجارة الخارجية والتكنولوجيا .. إلخ وبكلمة في الانفتاح على السوق العالمية وتتفق الاستثمارات المالية إلى هذه المنطقة القادرة على امتصاص التوظيفات الخارجية لاتساع السوق ورخص اليد العاملة سواء كان الأمر في قطاع الخدمات أم في قطاع الصناعة أم غيرهما.

إن العولمة هنا، تتجلّى في تعاملها التجاري قبل كل شيء . هذا التعامل ، الذي بلغ ٧٠ مليار دولار أي ١١٪ من حجم التجارة العالمية ، بصرف النظر

عن درجة استثمار هذه الأموال في العمليات الانتاجية . إن العملية الانتاجية التي تشرف عليها الشركة نفسها ، وجه من وجوه استثمار الأموال التي يقدمها الانفتاح على العولمة . والمهم أن نعرف من تعود هذه العملية الانتاجية ؟ أنتعود أرباحها لرأس المال الأجنبي أم للبلد في العالم الثالث ؟ وهذه النقطة لا يمكن القفز فوقها وتحتاج إلى إيضاح ، لكن لا يبقى الالتباس سائداً.

وعندما يقول صارق العظم ، إن العولمة هي تسليع كل شيء يعيدهنا إلى تكون رأس المال . إلى التبادل والعنف ، إلى خمسة قرون خلت استطاعت القوى الاستعمارية خلالها تحويل منتجات بلدان ما قبل الرأسمالية إلى بضاعة للسوق . وإذا كان الميل الأساس للعولمة هو تشجيع الانتاج الصناعي في دول الاطراف ، فماذا يمكن أن تكون علاقة الاطراف بمصنعيها ؟ أليست علاقة التابعين بالرأسماليين ؟ علاقة استثمار رأسمالى ؟ من هو الرأسمالي هنا ؟ بين الرأسمالية المركزية والأطراف مصلحة مشتركة قوية في قيام عمليات إنتاجية صناعية في مختلف أنحاء العالم !! إنها للوهلة الأولى مشاركة وهي نفسها مصلحة رب العمل في مواجهة العاملين . إنها علاقة استثمار رأسمالى يتلوى تأمين الربح للملكين الرأسماليين . فبأن معنى آخر يمكن القول إن رائد التوسيع الإمبريالي هو العولى اليوم هو الرأسمال الانتاجي الصناعي ذاته ؟ كل ما تقدم يبين أن هدف الشركات الكبرى هو الربح ، وأن يتم هذا الربح هنا عن طريق ضمان تحويل العلاقة التبادلية إلى علاقة إنتاجية صناعية .

وهل يتجاوز ما تقدم كون عملية الانتاج الرأسمالي تجري في الأطراف نفسها وبإشراف شركات عالمية غنية ؟ أى بإشراف رأسماليي المركز ؟ .

يجب أن يغدو واضحاً أن امتداد نظام العولمة إلى الأطراف يؤدي في أغلب الاحتمالات إلى البطالة في المراكز . وهذا لا يتحقق إلا عن طريق رخص اليد العاملة وشروط أخرى مناسبة للإنتاج الصناعي في الأطراف ، مما يعزز عالمية الطبقة العاملة وعالمية اضطهادها . ومن الحسن أن يشير المؤلف إلى أن الرأسمال الانتاجية المركزية لا تخرج إلى الأطراف لصنع تنمية حقيقية أو لمعالجة مشكلة التخلف . وأن عملية العولمة تتم كلها بقيادة المركز ورساميله ودوله .. وفي ظل هيمنته وبما يخدم مصلحته على المدى البعيد . لكن ما معنى هذا الآن بالنسبة لمصالح رأس المال العالمي ؟ وما مصلحته على المدى البعيد

لكن ما معنى هذا الان بالنسبة لمصالح رأس المال العالمي ؟ لماذا يعمد إلى السكوت عن دوافع المركز وطرق عمله وأهدافه، ولا يعمد إلى تحليل مصلحته وحقيقة؟ هل هذا عجز معرفى ؟ وما معنى القول بـان التنمية الحقيقية ممكنة ضمن حدود معينة وفي بلدان محددة وفى مناطق منتفقة؟ من يفعل كل هذا؟ من يعين ويحدد وينتقم؟ من الفاعل هنا؟ السؤال يبقى بدون جواب ما الاعتبارات التي تؤخذ فى الحساب فى هذه العمليات ؟ وما الظروف والأحوال والضوابط التي تحول دون قيام تنمية ؟ فهل ترك هذه المسائل بدون أحوبة محض مصادفة...؟

عندما يقول الباحث إن العولمة تشجيع على إنجاز مستوى معين من التنمية في بلدان محظوظة من جهة وفي البلدان التي تعرف جيداً كيف تستفيد من الفرص المتوافرة نتائجة العولمة عبر سياساتها وقراراتها ومستوى نضجها يتبارى إلى الذهن فوراً أن المسألة ليست مسألة حظ أو مصادفة بل متعلقة بسلوك سياسي متافق مع أهداف الشركات، وبقرار المركز الاستعماري في نهاية التحليل، فهل يتم الأمر بخداعنا البارع للشركات، وأن سلوك هو الذي يجعلنا محظوظين، فهل يدور الأمر على ضربة حظ أم على شروط يفرضها القوى الذي قبلنا التعاون والمشاركة معه..؟ والباحث يذكر صراحة كيف تجري الأمور «صحيح أن آلية المركز ونظامه العولمي هي التي تقرر على العموم وفي التحليل الأخير أية بلدان ستجرى فيها تنمية حقيقية ما وضمن أية حدود ووفقاً لأية اعتبارات وشروط»، فما هو المطلوب منا كي تكون مناسبين لهذه الشروط؟ ويبدو أن المسألة متعلقة بشروط سياسية قد تكون عسيرة، ولكنها دائماً شروط المركز، وعندما يقول: «إن الكثير يتوقف في ظل العولمة على ما تفعله البلدان الطرفية فيها وعلى نوع القرارات التي تخذلها، وعلى طبيعة ونوع السياسات التي تتبعها في التعامل مع ظاهرة العولمة نفسها، يتضح أن المركز هو الذي يقرر لاعتبارات خاصة قيام التنمية، لا البلد المعنى ولا شعوب العالم الثالث، فكان المؤلف مكلف من قبل تيار العولمة بفرض إملاءات وشروط على البلدان المختلفة أو على الدول الصغيرة أو على القراء.. إن هذه الشروط أكثر أهمية بكثير من القول: بأن العولمة -وهذا ما يوحى به أسلوب الكتابة- تضمن الانتقال من دائرة التبادل إلى دائرة

الانتاج والشروط التي تجعل بعض البلدان محظوظة وأوليات شركات العولمة المضافة إليها ، التي تتعلق بتكليف بلد مع الرأسمالية وإرضائها، أكثر تحديداً وصوحاً كما يبدو من توافر شروط الانتقال من التبادل إلى الانتاج.

من أهم شروط التوظيف المالي في الأطراف تقدير المركز لدرجة «الاستقرار السياسي» ووفرة قوة العمل وجود قاعدة تحتية مقبولة ومستوى جيد للمواصلات والاتصالات والمبادرات وخبرات تقنية ولغوية ومعلوماتية محلية متنوعة ومتقدمة، وتتوفر إمكانية جيدة لاستثمار رأس المال المحلي، ولتعينه التكنولوجيا السائدة، ووجود نظام مالي ومصرفي مقبول . وأخيراً حواجز تشريعية للرأسمال الانتاجي العولمي يجري التفاوض عليها وحولها .. إلخ . أليست هذه بلغة جديدة شروط الاستعمار القديم وعملياته؟ ألا يعني هذا فرض شروط استعمارية جديدة على المتعامل مع هذه الشركات الكبرى؟ يذكر المؤلف : إن الرأسمالية التاريخية تقوم في طورها العولمي الآن بإعادة ترتيب مشابهة وعلى صورتها الجديدة لأوضاع المجتمعات ذاتها ، بما يتناسب مع مصالحها الكبرى في الحقبة الراهنة؟ أما التحديث فهو تحضير واعد للدخول في نظام العولمة الكوني . ومن هنا الإحساس القوى بأن العولمة هي مملكة الضرورة والمصير والمستقبل شئنا أم أبيتنا . ونفقد هنا اللغة الملمسة عن المصالح الكبرى للرأسمالية التاريخية العولمة أو أى ذكر لها . كما نلاحظ تماشياً الحديث المباشر الصريح عن أغراض هذه الرأسمالية . فما حقيقة مصير البلد بعد دخوله العولمة؟ أسيكون مصيره مصير الثنائيين الستة؟ وما القوى المحركة لتطور البلدان العولمة والمقبلة على الدخول في عالم العولمة؟ تميل العولمة إلى تحويل المنتجين إلى العمل المأجور وتصفيته أشكال الإنتاج غير الرأسمالية ، لكن هل العولمة هي الشكل الجديد للرأسمالية؟ وما يعني قولنا إنها القدر ، سوى الكلمة الحاضرة دائمًا وغير المنطقية ، أمريكا ..؟.

بيد أن الحديث عن التشكيلة العولمية يولد التباساً كبيراً . فالتشكيلة الاقتصادية للمجتمع هي عضوية اجتماعية ، نسق علاقات اجتماعية يقع في أساسه نمط الانتاج أي وحدة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج . وهذا يحدد كنأس مادي العلاقات الأيديولوجية والسياسية الفكرية ، التي تمثل البناء

الفوقى . والتشكيلة الاقتصادية للمجتمع تمثل مرحلة تاريخية تعقبها مرحلة تاريخية أرقى . تتحقق بقيام ثورة اجتماعية . فكل تشكيلة اقتصادية تشكل حسب ما تقدم مساراً للنشوء ونمو ورزاول حقيقة اجتماعية تاريخية . يمكن أن تتكرر في أكثر من مكان أو مجتمع ، مثل المجتمع البدائي الشرقي القديم والعبودية والاقطاعية والرأسمالية إلخ.. إن كل تشكيلة ترتكز إلى مستوى تاريخي معين في تطور القوى المنتجة وعلاقة الانتاج التجاوبية معها ، التي تعد أساس التشكيلة الاقتصادية للمجتمع . ويقوم فوقها البناء ، الفوقي أو العلاقات الايديولوجية السياسية والمؤسسات والنظارات المواقفة لها . وحلول تشكيلة محل تشكيلة أخرى يتم في المجتمعات التي يتصف بها التناقض الاجتماعي العميق عبر ثورة اجتماعية . والتشكيلة الرأسمالية هي آخر تشكيلة اجتماعية في التاريخ ، يعني زوالها القضاء على كل أشكال الاستئثار والاضطهاد . ويتطلب القضاء عليها قيام ثورة اشتراكية حقيقية تحل بنظامها الجديد محل التشكيلة الرأسمالية .

نط إنتاج رأسمالى أم تشكيلة عولية؟

عندما نقول إن العولمة ستأخذ مجريها الطبيعي إلى « نشوء تشكيلة اقتصادية اجتماعية واحدة » في ظل قيادة نط الإنتاج الرأسمالى ، فهذا لا يزيد على قولنا إن العولمة شكل من أشكال التشكيلة الرأسمالية . فإذا كانت العولمة تولد التشكيلة العولمية ، التي تتخطى إلى حد ما وبشئ من الحياة الرأسمالى . من جهة وتبقى في ظل نط الإنتاج الرأسمالى ، أى ضمن التشكيلة الرأسمالية من جهة أخرى ، فإن استخدام كلمة تشكيلة هنا لا يولد سوى الاضطراب وعدم الدقة وسوء الاستعمال . إن الحديث عن تشكيلة عولمية ناشئة في ظل نط الإنتاج الرأسمالى ، لا تخرج من كونها تشكيلة رأسمالى . مما يطرح السؤال التالي : هل هذه التشكيلة العولمية تختلف فعلاً عن التشكيلة الرأسمالى غير العولمية؟! إن القول ، بأن الامبرialisية هي أعلى مراحل الرأسمالى ، والجملة هي عنوان لكتاب لينين ، ليست « كلمة دوغمائية خاوية بخشت أذاننا حتى بضع سنوات خلت » كما يقول صادق العظم ، لأن الحديث عن تشكيلة عولمية في ظل قيادة نط الإنتاج الرأسمالى ، ليست سوى طريقة موارية جديدة للقول الذي استحسن عدم قوله وهو أن العولمة هي أعلى مراحل الرأسمالى ، أو الادعاء الذي يحمل المخاطرة والقائل بأن العولمة

تختلط الرأسمالية؟ إن التنافس الحر والأمبريالية والعولمة مراحل متتابعة في التشكيلة الرأسمالية . ورغم فقر تعبير لينين ، فالحديث عن تشكيلة جديدة تظل في إطار الرأسمالية ، أى العولمة ، يعني سوى الإيحاء بأن العولمة أو الرأسمالية تنطوي على جوانب إيجابية ، وقد تكون تحرراً من الرأسمالية كما عرفناها.

لأنجذب في بحث الدكتور العظم عرضاً للملابسات والعوامل التي تؤدي إلى الانتقال من تشكيلة إلى أخرى في قلب التشكيلة الرأسمالية الواسعة ، أو أن شنتم الانتقال من مرحلة إلى أخرى . ويترك البحث جملة من المشكلات دون حل صريح واضح: من هو الحامل الاجتماعي لظاهرة العولمة؟ ما الشروط والقوانين التي تؤدي إلى الانتقال من مرحلة إلى أخرى؟ هل هناك تقدم تقني ، كما يقول أنصار نظرية المجتمع الصناعي ، أو انتصار نظرية التقدم التقني في التاريخ؟ هل العولمة ظاهرة رأسمالية جديدة ، أم تختلط العولمة الرأسمالية؟ يبدو أن المطلوب هنا إبقاء الالتباس قائماً . ولما لم تعط الأمبريالية دوراً في تحديد ظاهرة العولمة ، كيف يمكن تحليل العلاقة بين العولمة والبيوية المحلية؟ هل العولمة أيديولوجياً لمن؟ ما أغراضها؟ هل يستدعي تحليل العولمة البحث عن وسيلة مواجهة لها؟ كيف يمكننا التعامل مع ظاهرة العولمة عموماً؟ هل هي قدر ليس لنا سوى الاستسلام له؟ إن نقطة الضعف الأساس ، التي تواجهنا في بحث «ما هي العولمة» هي التسليم مقدماً بأن العولمة تفرض نفسها علينا فرضاً . هي قدر لا تستطيع الفكاك منه . هل هي فعلاً كذلك؟ ما العمل؟ وما هو سبيل الحرية والتحرر من هذا الشرط؟ أيجب أن نعرف كيف نوفق بين «أهدافنا القومية» ، ومتطلبات رأسمالية الولايات المتحدة؟ كيف يمكن تحقيق ذلك؟ .

بول سالم: أمريكا العالم والمهمات الأولية؟

في ندوة «العرب والعولمة» التينظمها في بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ، قدم بول سالم مدير المركز اللبناني للدراسات في بيروت ، ورقة بعنوان : «الولايات المتحدة والعولمة»، بين فيها ، أن من الصعوبة بمكان التمييز بين الحد الذي ينتهي عند النفوذ الأمريكي والحد الذي تبدأ معه العولمة وتساءل «هل العولمة أمريكا عالمية أم ستنجذب أمريكا تدريجياً السيطرة عليها في المستقبل المنظور؟ ونوه بأن الولايات المتحدة ستبقى في

القرن الحادى والعشرين مركزاً مهيمناً فى النظم العالمى . وطرح على نفسه وعليها السؤال التالى: كيف ستواجه العالم الجديد الذى تهيمن عليه الولايات المتحدة ؟ ولخص موقفه أخيراً بقوله: «دعونا نعمل لكي لا تثنينا خلافاتنا وصراعاتنا مع الولايات المتحدة حول إسرائيل والسيطرة على النفط العربى، وعلى غيرها من الأمور عن مواجهة تحديات العولمة . فنأخذ منها ما هو إيجابى ومفيد لنا ، من حيث الاصلاح الداخلى والتواصل العالمى . وبول سالم، رغم أنه يطالب: أن نحدد موقفنا من الهيمنة الأمريكية ومواجهتها يذكر» أن الديمقراطى التمثيلية واقتصاد السوق تحت رعاية الدولة ، ربما كانا الشكل الأفضل لنظام اجتماعى ثابت مزدهر » وينتهى إلى القول : «دعونا نأمل فى أن يكون هذا التكامل العالمى، الذى جاءت به العولمة ، سليما . ودعونا نأمل فى أن تكون التحديات التى خلفتها العولمة حافزاً للوطن العربى لاستفادة من غفوته . المهم أن نجد لها مكاناً مناسباً فى ظل هيمنة الولايات المتحدة وعولتها .

ويمكن للمراقب أن يلاحظ أن يسین وصادق العظم وبول سالم ، أمييل إلى قبول العولمة لأسباب مختلفة ، رغم ما يمكن أن تثيره من مشكلات . في حين أن كتاباً آخرین كان لهم مواقف مغايرة منهم محمد الأطرش ود. نبيل مرزوقي ود. جلال أمين ورهيف فياض والدكتور إسماعيل صبرى عبد الله . وقد كان واضحاً أنهم ضد العولمة .

محمد الأطرش ، أهمية التكامل الاقتصادي العربي ..

محمد الأطرش فى مقاله (العرب والعولمة ، ما العمل ؟) المستقبل العربى عدد ٢٢٩ - ١٩٩٨/٣). يذكر أن « العولمة هي اندماج أسواق العالم في حقوق التجارة والاستثمارات المباشرة وانتقال الأموال والقوة العاملة والثقافة والتقانة . ضمن إطار رأسمالية حرية السوق . وهي خضوع العالم لقوى السوق العالمية ، مما يؤدي إلى اختراق الحدود القومية وإلى انحسار كبير في سيادة الدولة ». ولكن هل تلاشت سيادة الدولة ؟ يجيب الأطرش لا . لأسباب منها أن الدولة إنفاقت عام ١٩٩٥ نسبة ٤٣٪ من الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة و٤٩٪ في ألمانيا و٦٨٪ في السويد ، ومنها أن القطاع الخاص عندما يتعرض لازمات يلجأ إلى الدولة لمساعدته . وخلال أزمات البورصة العالمية عام ١٩٨٧ تدخل البنك الفيدرالى بفعالية لحماية النظام المصرفي

الأمريكي . وفي عام ١٩٩٧ دعمت وزارة المالية والبنك المركزي في اليابان المؤسسات المالية . ويذكر د. محمد الأطرش من ناحية ثانية ، أن هناك مبالغة في ظاهرة العولمة . فالأغلبية العظمى من الشركات غير معولمة وهي متعددة في الوطن الأم وتحتاج إلى الدولة في مجالات عديدة . ليس هناك عولمة في قوة العمل وعولمة رأس المال محدودة ، والعولمة المالية لا تشمل أغليبية دول العالم ، مما يوحى بأن الأمريكية خاصة يعتمدون على ماتتحقق من اندماج في إطار رأسمالية حرية الأسواق وفي مجال التقانة (الكومبيوتر ، الأقمار الصناعية ، الانترنت) لإنشاء أيديولوجية العولمة ، التي تعد منطلقاً لتحقيق عولمة فعلية . أى القيام بهجوم أيديولوجي يستكملاً عملية هيمنة الرأسمالية في العالم وفي أسواقه وبلدانه ، أى إعادة إنتاج نظام الهيمنة القديم الرأسمالي .

وتستخدم الرأسمالية قوتها الاقتصادية المالية والعسكرية لفرض عالم معولم . فكيف يستطيع العرب مواجهة العولمة ؟ بالنسبة للبلاد العربية . يقترح محمد الأطرش تحقيق مشروع تكامل اقتصادي قومي يحقق أسباب القوة ، ومن أهم مظاهره : ١- إقامة منظومة أممية إقليمية عربية .

٢- إقامة سوق عربية مشتركة تدريجياً ولو بدأت بدولتين أو ثلاث .
ويشير الأطرش إلى أهمية إقامة مشاريع مشتركة مخططة بهدف خلق درجة أعلى من التكامل إلى ضرورة حماية السوق العربية المشتركة من مراححة الصناعات الأجنبية . وينتقد افتتاح أقطار الخليج على الخارج .
وينبه بصدور التنمية العادلة المستقلة بظهور تباطؤ في نسبة النمو الاقتصادي العربي في الأعوام ١٩٩١ / ١٩٩٦ ، وهو يدعو عن طريق التنمية العادلة المستقلة إلى التقليل من مخاطر العولمة ، ومواجهة سوء التوزيع في الثروات والدخول .

في لحة إلى الوراء يذكر ، أن صادرات مصر لسوريا سنة ١٧٥٠ كانت أكثر بكثير من صادراتها لفرنسا وفي عام ١٧٨٣ كانت صادرات مصر لأوروبا ١٤ مليون ليرة ذهبية ، في حين أن صادراتها لمدينة جدة بلغت ٢٤ مليون ليرة ذهبية . ويشير كذلك إلى أن التكامل الاقتصادي لم يتحقق حتى الآن بسبب عدم توافر إرادة سياسية صحيحة وتراجع الدولة والقطاع العام عن مواجهة حرية الأسواق والقطاع الخاص والبذخ الاستهلاكي ، وتهريب الأموال إلى

الخارج . وبما يؤثر تأثيراً كبيراً في التنمية يستفحـال البطالة ، الأمر الذي يتطلب تدخل الدولة للحد منه . وما يتعارض مع تحقيق التنمية العادلة المستقلة ، الإخفـاق في إشباع الحاجات الإنسانية لأغلبية الناس والتبعـة في الاقتصاد والغذاء والأمن والمياه . وقد مارست المراكز الرأسمالية ، وخاصة الأمريكية الضـغوط لنشر حرية السوق وثقافة السوق ، وبكلمة ، نشر رأسـالية الحرية الاقتصادية ، ولا يمكننا مواجهـة هذه السياسـة الرأسـالية مع الاتجـاه إلى العولـة . ويطـالب باعطاء القطاع العام دورـاً مهـماً في التنمية ، وإخـضاعه لراقبـة ديمـقراطـية ، وتعـيـثـة الشـعـبـ بـيمـقرـاطـياً للـحدـ منـ حرـيةـ السوقـ والتـجـارـةـ التـىـ لاـتـيـزـ بـينـ اـسـتـيرـادـ وـتـصـدـيرـ .

ويتفـقـ معـ محمدـ الأـطـرـشـ فـيـ إـبـرـازـ أـهـمـيـةـ التـكـامـلـ الـاـقـتـصـاديـ الـعـرـبـيـ وـإـضـافـهـ التـبـعـيـةـ لـالـسـوقـ الـعـالـمـيـ ، وـتـوـفـيرـ شـروـطـ وـحدـةـ الـعـربـ الـاـقـتـصـاديـ ، كلـ منـ اـسـمـاعـيلـ صـبـرىـ عـبـدـ اللهـ ، نـبـيلـ مـرـزـوقـ ، جـلالـ أـمـينـ وـمـفـيدـ حـلـمىـ وغيرـهـ .

إـسـمـاعـيلـ صـبـرىـ عـبـدـ اللهـ ، ضـرـورـةـ تـوحـيدـ السـوقـ الـعـرـبـيـ وـالـتـنـمـيـةـ التـكـامـلـيـةـ ٤٠

يلـحـ إـسـمـاعـيلـ صـبـرىـ عـبـدـ اللهـ عـلـىـ التـنـمـيـةـ وـوـحدـةـ الـعـربـ الـاـقـتـصـاديـ ، وـيـعـتـبرـهـ طـوـقـ النـجـاةـ مـنـ الـأـخـطـارـ الـحـيـطةـ بـنـاـ ، وـيـدـافـعـ عـنـ وـجـهـةـ نـظـرـهـ (ـالـمـسـتـقـبـلـ الـعـرـبـيـ ، الـعـدـدـ ٢٢٨ـ)ـ بـقـوـلـهـ : «ـ لـقـدـ أـخـذـتـ التـبـعـيـةـ وـبـدـايـاتـ الـتـهـميـشـ وـالتـدـمـيرـ بـدـيـلاًـ عـنـ التـنـمـيـةـ ، تـعـمـلـ عـبـرـ كـلـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ »ـ وـالـمـطلـوبـ مـشارـكـةـ كـلـ أـبـنـاءـ الـوـطـنـ الـعـرـبـيـ فـيـ الـوـحدـةـ »ـ وـضـرـورـةـ إـرـسـاءـ الـقـوـاعدـ الـاـقـتـصـاديـ ذاتـ الـمـصلـحةـ فـيـ تـوحـيدـ السـوقـ الـعـرـبـيـ »ـ وـيـجـبـ أـنـ تـكـونـ الـمـصالـحـ الـاـقـتـصـاديـ الـعـرـبـيـةـ قـوـيـةـ ضـاغـطـةـ عـلـىـ الـحـكـومـاتـ ، وـلـابـدـ لـتـحـقـيقـ الـوـحدـةـ الـاـقـتـصـاديـ مـنـ توـافـرـ الإـرـادـةـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـاـقـتـصـاديـ الـعـرـبـيـةـ ، وـتـحـقـيقـ التـنـمـيـةـ مـنـ خـلـالـ التـكـامـلـ وـتـحـقـيقـ التـكـامـلـ مـنـ خـلـالـ مـشـروـعـاتـ التـنـمـيـةـ ، وـلـهـذـاـ يـتـبـنىـ ماـيـسـمـيـهـ التـنـمـيـةـ التـكـامـلـيـةـ ، مـذـكـرـاًـ أـنـهـ فـيـ هـذـاـ مـعـ يـوسـفـ صـايـغـ وـمـحـمـودـ الـأـمـامـ .

* مـفـيدـ حـلـمىـ ، أـهـمـيـةـ مـواـجـهـةـ الـشـرـكـاتـ مـتـعـدـيـةـ الـجـنـسـيـةـ ٤٠

يـدـعـوـ مـفـيدـ حـلـمىـ بـدـورـهـ ، إـلـىـ ضـرـورـهـ مـواـجـهـةـ اـقـتـصـاديـاتـ الـدـوـلـ الـعـرـبـيـةـ ، وـإـنـ كـانـتـ صـفـيـرـةـ الـحـجـمـ ، لـالـشـرـكـاتـ مـتـعـدـيـةـ الـجـنـسـيـةـ . وـالـنـهـوـرـ

بالاقتصادات العربية من الداخل هو الطريق الأفضل للتفاعل مع الاقتصاد العالمي المعاصر . وثمة أهمية للتغلب على ضعف التكامل وشدة التبعية في السوق العربية للسوق الرأسمالية . وضيق الأسواق المحلية العربية بسبب استثمار أموال عربية ضخمة في الخارج (تقدر الأموال العربية المستثمرة في الخارج بـ ٧٠٠ مليار دولار)، التي توفر فرص عمل لثبات الألوف في الدول الأجنبية، في حين تنتشر البطالة في البلاد العربية . وينوه الباحث بضعف الإنفاق على البحث العلمي والتطوير ، نتيجة ضعف الإنفاق على التعليم كما يبدو . الذي يؤدي بدوره إلى الأممية عالية النسبة . والمهم توفير الشروط التي تجعل العرب أكثر استعداداً لآليات التكامل الاقتصادي العربي . وفي تأكيد مفيض حلمي على أهمية الإنفاق على البحث العلمي والتطوير ، يلتقي مع انطوان زحلان، الذي يبين أن قيام نظام وطني للعلم والثقافة هو الأداة الحاسمة لتمكن أي بلد من أن يصبح منتجاً اقتصادياً . ومن الصعب جداً فهم ظواهر التنمية والتكنولوجيا والعلوم دون إدراك أهمية العلم والثقافة في إنتاجها . إن نقد اعتبار التقنية والتطوير التقني العامل الأول في التطوير الاجتماعي . لا يلغى أهمية العلم والتقنية في بناء المجتمع الحديث وتتجاوز التخلف .

لقد أن الأوان لأن تصنع الدول العربية جدواً زمنياً للتدرج في طريق التكامل الاقتصادي العربي لقطع الطريق على مشاريع العولمة (وقد توصل المجلس الاقتصادي العربي في إطار الجامعة العربية إلى قرار بإقامة منطقة تجارة حرة ابتداء من أول عام ١٩٨٨ ، يبدأ بتخفيف الرسوم الجمركية بمعدل ١٠٪ سنوياً لمدة عشر سنوات ، ويمكن لبعض البلدان العربية تخطي هذا التنفيذ بأقل من عشر سنوات إن شاءت) . وأبرز مؤشر لتحقيق التكامل الاقتصادي العربي ، تطوير التجارة البينية العربية ، وتعزيز المصالح العربية المشتركة بالآليات الدخول في مسار تكامل عربي ومصالح عربية قوية مشتركة .. المهم أن تخطو الدول العربية على طريق تحرير التجارة بينها والانتقال إلى مرحلة عليا من التكامل ، وإعادة هيكلة الاقتصادات العربية خلال فترة معقولة ، مما يخفف من تبعيتها للمراكز الدولية ويسهل اندماج الأقطار العربية إنديماً يقلل من اعتمادها على الخارج وجعل القاعدة الانتاجية في البلاد العربية قادرة على الاستيعاب الأفضل للتكنولوجيا



الحديث ودفعها إلى الإقدام على صناعات كالعلوماتية ووسائل الاتصالات . إن زمن التغيرات العالمية يستدعي استئثار عناصر القوة المندمجة وأخذها في الحسبان . إن التكامل العربي والتجارة الحرة العربية سيساعدان على التعامل مع التكتلات الدولية الأخرى من موقع أقوى ، وتعزيز الذات الوطنية والإمكانات العربية الذاتية ، وضرورة تعاون الدول النامية لجعل النظام العالمي المعاصر أكثر إنصافاً ومواجهة تحديات العولمة وإخبارها .

نبيل مرزوق ، محاولة، جادة لكشف وتحديد أبعاد العولمة ..

في تناول د. نبيل مرزوق لبحثه المنشور في مجلة «الطريق» اللبناني (العدد الرابع ١٩٩٧) بعنوان «حول العولمة» محاولة جادة لكشف الأبعاد الأساسية للعولمة الراهنة . فالعولمة هي، قبل كل شيء، أيديولوجيا الليبرالية الجديدة، إنها إطار لنظام اقتصادي عالمي جديد ، يعيد بالرفاه والعدالة ، لكن الواقع لم تؤيد تلك الوعود . فالملاحظ أن نتائج الانتخابات التشريعية في فرنسا وبريطانيا وإيطاليا تشير إلى تصاعد مسيرة مواجهة العولمة الليبرالية، والصراع مستمر ولم تظهر نتائج بعد .

لقد خلق الأميركيون في أوائل الثمانينيات مصطلح العولمة ، لتبرر هيمنة المصالح الأمريكية . ولكن ضمن أي إطار تتم هذه العولمة ، ومن القوة الفاعلة المستفيدة منها . وكيف تتجلى العولمة مع زيادة التمركز والتركيز والهيمنة؟ النظام الاقتصادي العالمي هو في طور التشكيل ، ويتنفس من خلال التجربة التاريخية أن قيم السوق غير كافية لتشكل منظومة القيم ، التي يستند إليها النظام . وقد أقيمت المؤسسات والمنظمات الجديدة في هذه المنظومة الشاملة ، إلا أن دور الدولة في هذا النظام لا يزال مثيراً للجدل . وسوق الدول النامية فيه لا يزال غير محدد ، ولا تزال التناقضات الداخلية قوية في بنية النظام الرأسمالي ومرحلة الراهنة . ولعل النزعة الأمريكية هي الساعية لفرض هيمنتها فيه . إلا العناصر المقاومة لهذه الهيمنة تزداد اتساعاً . ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية اتجهت أنظار الدول الرأسمالية المنتصرة في الحرب إلى إقامة نظام اقتصادي عالمي يكرس المفاهيم والقيم الليبرالية الاقتصادية . وكانت الولايات المتحدة المنتصرة هي العاملة على إقامة هذا النظام .

ويمكن التعرف على حقيقة النظام الاقتصادي العالمي بتحديد سماته الرئيسية . لقد تميزت مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية باستقرار نسبي ونمو اقتصادي سريع ومستمر في العالم . وظل هذا النطوير دائما حتى أوائل السبعينيات ، حيث بدأت مرحلة جديدة من التطور ، تميزت بزيادة التمركز والتركيز في رأس المال . وقد ساعد في تسريع وتيرة هذه العملية ، الشورة العلمية والتكنولوجيا الحديثة ، وتعاظم دور الشركات متعددة الجنسية والتكتلات الاقتصادية والانتاجية ، وهيمنة نمط الاستهلاك معلوم ، أضعف العادات والثقافات المحلية . وغدت اليمنة التي يفرضها التركيز والتمركز في رأس المال بمثابة عولمة تفترض ضمناً المشاركة والفعل المتساوق للأطراف الداخلية في العولمة . إن هيمنة رأس المال وتركيزه وسيطرته ، والقسمة الدولية للعمل ، اتخذت صفة المشاركة والأفعال المتبادلة وهي صفة العولمة الرئيسية ، التي تخفي هيمنة القوى الرأسمالية . إن العولمة هي ، بالدرجة الأولى ، ظهور هيمنة وتركيز رأس المال ، كمشاركة بين أطراف متبادلة . والصفة الأخيرة هي التي تمنع العولمة القدرة على إنشاء أيديولوجية جديدة هي أيديولوجية العولمة ، التي تجعل العولمة تياراً زاحفاً لا يمكن إيقافه ، وتخفي كون العولمة ظاهرة الحقيقة لاستغلال الرأسمالي الجديد . إن تحويل هيمنة الفعلية إلى مشاركة ظاهرية هي الفكرة اللاحقة في بحث د. مرزوق ، وهي أساس أيديولوجيا العولمة ، التي تخفي كلية هيمنة ولا تبقى إلا على مشاركة ظاهرية ، على فينومينولوجيا العولمة ، التي أفقدت بحث الدكتور صادق جلال العظم الطابع النقدي الذي كان يتمتع به . وإن كان بإمكاننا بتعزيز التحليل كشف حقيقة الاملاءات التي يفرضها باسم العولمة ، والانتقال من هذه المشاركة الظاهرة إلى هيمنة الفعلية .

ماذا عن التجارة الدولية والسوق المالية للاستثمار والإنتاج ..؟

يحاول د. مرزوق تناول التجارة الدولية والسوق ، المالية للاستثمار والانتاج ، والشركات متعددة الجنسية والمؤسسات الدولية . فعلى صعيد التجارة الدولية ، تضاعفت هذه التجارة ١٤ مرة بين عامي ١٩٤٥ / ١٩٩٤ . أما الانتاج العالمي فقد تضاعف خلال الفترة نفسها ٥٥ مرة . ومع ذلك لم تبلغ حصة التجارة الدولية من الناتج المحلي مستوىها المتحقق عام ١٩١٣ إلا في أواسط السبعينيات وما يزال قرابة ٩٠٪ من قوة العمل العالمية يعمل

للسوق الداخلية . ومستوى التبادل التجارى لا يعبر حاليا عن صفة العولمة .
اما التجارة الدولية فتتركز حاليا بين الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة
واليابان ومجموعة دول جنوب شرق آسيا حديثه التصنيع . ومجموعة الدول
المذكورة تستثمر بـ ٨٧٪ من الواردات المالية وحوالى ٩٤٪ من الصادرات
المصنعة . والمهم أن هذه الشركات متعددة الجنسية سيطرت أوائل
السبعينيات على ثلثي التجارة الدولية . وكانت الشركات متعددة الجنسية
الأمريكية تسيطر أوائل الثمانينيات على ٧٧٪ من صادرات الولايات المتحدة
والشركات متعددة الجنسية البريطانية تسيطر على حوالى ٨٢٪ من
 الصادرات بريطانيا . وقد تراجعت حصة الدول النامية في التجارة العالمية ، إذ
 كانت حصة المواد الأولية ٣٥٪ من التجارة العالمية عام ١٩٦٢ فتراجعت عام
 ١٩٩٦ إلى ١٥٪ وقد تكبدت أفريقيا خسائر من عام ١٩٨٦ إلى عام ١٩٩٠ تقارب
 ٢ مليارات دولار . وجرت التحفيضات المتتالية في الرسوم الجمركية على
 صادرات الدول النامية من ٤٠٪ عام ١٩٤٧ إلى ٦٢٪ وفي جولة الأوروجواي
 للجات ١٩٨٦ انخفضت الرسوم إلى ٣٩٪ في حين بقيت الرسوم على
 الواردات من الدول النامية عالية . ولقد تساءل نائب رئيس البنك الدولي
 قائلاً : كيف تتشدق الدول الصناعية المتقدمة بالتنافس والأسواق الحرة ،
 وتتبني في الوقت نفسه مبادئ التجارة المداراة وتقيد الأسواق عندما
 تتعرض مصالحها للخطر؟ .

أما عن السوق المالية والاستثمار والإنتاج فقد تراكمت رؤوس الأموال
 وعبرت الحدود القومية بحثاً عن الاستثمار . وقامت المصارف بتكتيف
 نشاطها بما يتلاءم وهذا التوسيع . وكانت عملة القاعدة الجنية الاسترليني ،
 وبعد اندلاع الأزمة الكبرى (١٩٢٩) أنشئت أول مؤسسة مالية دولية هي
 مؤسسة التسويات الدولية (١٩٣٠) . وبعد الحرب العالمية الثانية أصبح الدولار
 عملة القياس بالاستفاد إلى قاعدة الذهب ، وأصبح لزاماً مع التوسيع ،
 التنسيق للحفاظ على استقرار ما في هذه السوق . وألغت الولايات المتحدة
 في أوائل السبعينيات قابلية تحويل الدولار إلى ذهب ودعت إلى تعويم
 للعملات يستند إلى السوق وليس إلى الرصيد الذهبي للعملة ، فتحررت من
 مسؤولية العجز في ميزان مدفوعاتها . وهكذا تم تحويل العجز بفائض الدول
 الشريكة في تجارة الولايات المتحدة وأحدثت السوق المالية الدولية (الأورو -

دولار) التي قدمت رصيدها هائلاً لهذه السوق . ويمكن اعتبار هذا، المرحلة الأساسية في العولمة المعاصرة للسوق المالية . وحدثت المرحلة الثانية بعد عام ١٩٧٣، حيث أودع الفائض المالي للدول المصدرة للنفط في السوق المالية وسمى (بالبترول- دولار) . ومن الأورو دولار (الأوربي) والبترول دولار (النفطي) . نشأت تضخم مالي وسيولة مالية . وأقرضت الدول النامية من السوق المالية الدولية، وهكذا دخلت السوق المالية مرحلة جديدة في عولتها . وتحول الوسيط المالي إلى فاعل حقيقي في عملية الاستثمار والتداول . وأكسبت التطورات التقنية الكتلة المالية في السوق الدولية حرکية أكبر على صعيد الاتصالات . وخلال الفترة ١٩٩٣-١٩٨٩ ازدادت تدفقات الاستثمارات الأجنبية وبلغت عام ١٩٩٥ حوالي ٣١٥ مليار دولار، ونمت هذه الاستثمارات بمعدل ١٢٪ سنوياً خلال الأعوام ١٩٩٤-١٩٩١ . ونتيجة لتعاظم كتلة رأس المال على الصعيد العالمي فإن الدول ستكون في وضع حرج في ضبط سعر الفائدة وفي اتخاذ إجراءات على صعيد النظام المالي والمصرفى . وقد وجهت الاستثمارات إلى عدد محدود من دول جنوب شرقى آسيا الصناعية حديثاً . مثلما نشهد في السوق المالية العالمية عولمة وتعاظماً خارج أي نطاق للرقابة مما ينبع بعدم التناسب بين حجمها وحجم الإنتاج والتداول المادى ويمكن أن يهدى إلى قيام أزمة تهدى السوق المالية العالمية .

بالنسبة للشركات متعددة الجنسيات، فإنها تتوزع بشكل أساس على الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا واليابان وتسيطر المائة شركة الأكبر بينها على ما يقارب ٣٢٪ من رصيده التراكم العالمي للاستثمار الأجنبي المباشر في العالم خلال الفترة (١٩٩٤-١٩٩٠) وتبلغ مبيعات فروعها من الألكترونيات ٨٪ من إجمالي مبيعات هذه الصناعة . وتحتل ٢٢ شركة أمريكية المراتب الأولى بين المائة . ويعمل في المائة شركة الأكبر حوالي ١٦٪ من عمال الشركات ، بينهم ٦٪ في فروعها في الدول النامية . وقد حققت هذه الشركات المائة خلال السنوات ١٩٩٤-١٩٩٠ زيادة في إنتاجية العمل تقدر بما يعادل ٢٪ وقد سيطرت هذه الشركات على ثلثي التجارة الدولية للسلع والخدمات .

وشكلت المبادرات الداخلية بينها حوالي ٢٢٪ من التجارة الدولية . وتحتفظ هذه الشركات بدور أساس في موطنها الأصلى . وهي تحقق ٧٠٪ إلى ٧٥٪ من

القيمة المضافة الناشئة عن نشاطها في بلدانها. ولقد أكسبت الثورة العلمية التكنولوجية الحديثة الشركات متعددة الجنسية قوة إضافية. ويتبين أن الشركات الكبرى التي يعمل فيها أكثر من 1000 عامل في الدول الرأسمالية المتقدمة كانت مسؤولة عن ٨٠٪ من جملة الإنفاق على البحث والتطوير. وتحتل الشركات متعددة الجنسية المكانة الأساسية في هذا الإنفاق (الأمريكي- الياباني- الألماني) ولم تتعد حصة الدول النامية من هذا الإنفاق ٢٪ . خلال الثمانينيات . وقد أوجدت الشركات متعددة الجنسية شكلًا جديداً للتصنيع يتسم بالاستقرار عموماً، وقد منحت هذه الشركات قدرًا أكبر من حرية الانتقال حسب مصالحها . وليس ثمة ضوابط قانونية ملزمة بحيث تهرب هذه الشركات من أية رقابة أو إشراف دوليين . وقد حدثت خلال السنوات الأخيرة حوادث عديدة تشكل انتهاكاً لقواعد العمل وحقوق الإنسان . وبقيت هذه الشركات خارج المسألة . وهي تعمل بالتنسيق مع مؤسسات دولية على إشاعة التحليل يضوابط سوق العمل وإلغاء تدخل الدولة الرقابي أو الإشرافي . وقد استخدمت هذه الشركات المؤسسات الدولية للدخول إلى الدول النامية . ووجهت برامج هذه المؤسسات وفق مصالحها واستراتيجيتها.

إن هذه الشركات تقوم بدور أساس في عملية العولمة ومن خلال الاستثمار الأجنبي وتنظيم العملية الإنتاجية دولياً، وإشاعة ثقافة استهلاكية موحدة على سعيد العالم والسيطرة على مجال الإعلان والاتصالات والإعلام . وتتمثل الشركات الأمريكية فوق القومية المكانة الحاسمة في هذا المجال . وقد باهتت محاولة الأوربيين في التصدي لهذه العولمة الأمريكية للثقة بالفشل . لحد الآن . وتتضح مخاطر هذه العولمة للشعوب الفقيرة والدول النامية ، بتهميش الثقافات وزرع التناقضات والصراعات الداخلية فيها نتيجة زيادة التفاوت الاجتماعي داخلها وارتفاع فئات اجتماعية لا تتجاوز ١٥٪ من السكان إلى هذه العولمة.

طبعية دور المؤسسات الدولية، صندوق النقد والبنك الدوليين؟ . كذلك يتضح من عمل المؤسسات الدولية، وهي العنصر الرئيسي الحاسم في النظام الاقتصادي العالمي، مثل صندوق النقد الدولي والبنك الدولي والآيات، أنها تترجم أيديولوجيا الليبرالية من خلال الأسس التي اعتمدها

للنظام النقدي الدولي وللسياسات المالية والاقتصادية والتجارية . وهي سلطة دولية للتشاور وسلطة معنوية، ومتلك حق إنشاء القواعد والضوابط وفرضها على الدول .

ولقد تناهى دور صندوق النقد الدولي وطور مبدأ المشروعية في حقوق السحب ليفرض رقابة على اقتصادات الدول الأعضاء في حال العجز الكبير في ميزان المدفوعات ، وعلى الغرار نفسه فعل البنك الدولي . وعلى أثر صدور قرارات مجلس الإدارة (العام ١٩٧٩) وتوسيع التعاون بين الصندوق والبنك . حدث التطور الأهم في صندوق النقد الدولي والبنك الدولي . ومنحت أزمة المديونية في الثمانينيات ، البنك الدولي وصندوق النقد الدولي الفرصة المواتية لتطبيق برامج التكيف الهيكلى ، التي بلغت ثلث إجمالي قروض البنك الدولي . وهي تمثل ١٢٪ بالنسبة لقرهود الصندوق . والبنك مدعو إلى الاهتمام بشكل أكبر بتنظيم مجلس الوظائف العامة، وباجراء تحديث في مجال تشريعات العمل والاستثمار والضريرية، وبشكل عام الاهتمام بالمناخ الملائم للنشاط التجارى . وفي الاجتماع الخاص بالبنك والصندوق في بانكوك ١٩٩١ صرح لنيل ميلز باسم البنك ، بأنه يشعر بالقلق إزاء الإنفاق العسكري . ودعا إلى أن تكون هذه المسألة جانبًا من جوانب (الإدارة الشاملة) . فالبنك والصندوق ينتقلان من مرحلة التنسيق إلى مرحلة رسم التوجهات وفرض الإجراءات . وبعد توقيع اتفاق الجات عام ١٩٩٤ وإنشاء منظمة التجارة العالمية . دخل النظام الاقتصادي العالمي مرحلة جديدة في تطوره ، يتحقق فيها انسجام شامل بين منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي . وهذه المؤسسات الثلاث هي القيادة المركزية للنظام الاقتصادي العالمي . وهناك منظمات دولية أخرى ذات تأثير مثل منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية ، نادي روما ، ملتقي دافوس ، عشرات المؤسسات البحثية التي قامت بنشر أيديولوجيا موحدة تمارس تأثيرا في صانعي القرارات .

المنعكسات على البلدان النامية^٩ .

تشكل الدول النامية ٨٠٪ من مجموع سكان العالم و٢١٪ من الناتج المحلي الإجمالي العالمي (١٩٩٣) . عدد محدود من الدول النامية يحقق النسبة العظمى من هذه الناتج . فحصة الفرد من الناتج المحلي الإجمالي تبلغ ٢٢ ألف

دولار سنوياً في بعضها و٤٢٠ دولار سنوياً في دول أخرى . وضاللة مساهمة البلدان النامية في الانتاج العالمي تتمثل في تراجع حصة المواد الأولية في التجارة العالمية من ٣٥٪ سنة ١٩٦٢ إلى ١٥٪ سنة ١٩٩٢ وفي تراجع أسعار الصادرات الرئيسية وتراجع أسعار الصادرات من المواد الغذائية والمشروبات باكثر من ٤٧٪ بين ١٩٩٠-١٩٩٨ .

يزداد تمييز البلدان النامية (..) بلغت ديون الدول النامية ١٥٣٤ مليار دولار عام ١٩٩٣ . وتلزمت أغلبيتها تحت وطأة مديونيتها بتنفيذ برامج للتكيف الهيكلي . وارتفاع نشاطها القمعي الداخلي توفر لها المناخ الملائم للنشاط التجاري . إن اتساع الفقر في البلدان النامية ترافق مع تراجع حصة الفرد من الغذاء مما يعني تدني المستوى الصحي وتراجعه وانتشار الأمراض بخاصة بين الأطفال .

في هذه الوضعية من العولمة لا تملك الدول النامية القدرة على التحرك وخاصة بعد غياب المعسكر الاشتراكي والتراجع في حركة التحرر الوطني . وتجد الدول النامية نفسها مدفوعة إلى الانضمام إلى هذه العولمة بفعل تبعيتها وضعف قدرتها التفاوضية . وتترك لتوارثه مصيرها في التفكك والأمراض والمجاعات . إن الشكل المطروح هو عولمة ٢٠٪ من سكان العالم وتغييب وتهميشه ٨٠٪ من السكان . ويصبح مفهوم النظام العالمي مفهوم هيمنة وسيطرة .

إن المسار العالمي للعولمة يتوجه إلى زيادة التركز والتمرکز على الصعيد العالمي . فالدول الأكثر تصنيعاً تستأثر بالثروة وهي تنتج أكثر من ٧٥٪ من الانتاج العلمي العالمي ومسئولة عن ٩٠٪ من براءات الاختراع المطروحة سنوياً . في السنوات الأخيرة سيطرت أكبر خمسة احتكارات على أكثر من نصف السوق العالمية ، طيران ، كهرباء ، الكترون ، مكونات الكترونية ، اتصالات .. إلخ . ونتيجة هذا التركز نشأ تناقضان : الأول بين الدول المصنعة الفنية من جهة وبين الدول النامية بشكل عام حيث تستحوذ الأولى على الثروات وتتحمل الثانية ذلك . والتناقض الثاني هو تناقض نزعنة الهيمنة الأمريكية إزاء شركائهما .

إن الصراع على القمة والحروب التجارية بين أطراف الثلاثي تؤكد الطابع القومي لرأس المال، مما يؤدي إلى تغيير النظام الرأسمالي العالمي، ذي

القطب الواحد كما تريده الولايات المتحدة الأمريكية . كما ستدفع أزمة البلدان النامية (بطالة ، فقر ، تهميش) إلى التصدى لهذا النظام والحد من سيطرته على مصادرها .

ففي الوقت الذى تتوافر الثروة فى أيدي حفنة صغيرة على المستوى العالمى فإن النسبة الأقل، التى لا تتجاوز ١٪ من سكان الدول الرأسمالية المتقدمة تستثار بالحصة الأكبر من الدخل والثروة فى بلدانها . فقد تراجعت دخول العاملين وازدادت ثروات الفئات الأغنى . ويعيش ١٥٪ من سكان الاتحاد الأوروبي فى مستوى الفقر كما يعيش ثلث سكان البلدان النامية دون خط الفقر .

إن إزدياد التفاوت واتساع دائرة الفقر يسببان عدم الاستقرار ويفاقمان التناقض بين العمل ورأس المال . وهذا ما سيدفع إلى فرض ضوابط وقيود على حركة رأس المال . وجاءت الانتخابات الفرنسية والبريطانية لتؤكد هذا الاتجاه .

تنامي خلال العقود الأخيرتين الاتجاه نحو الاستيلاء والدمج بخلال الأعوام ١٩٨٦-١٩٩٦ ازداد هذا الاتجاه بمعدل ١٥٪ سنويًا . وفي عام ١٩٩٢ وحده تمت ٨٩٪ عملية دمج في قطاع الاتصالات في الاتحاد الأوروبي . وكانت عمليات الدمج والاستيلاء محرك الاستثمار الأجنبي في دول المثلث . فبالإلى إلى أي مدى يمكن أن يستمر التركيز؟ .. لقد تقاسم خمس شركات كبرى أكثر من نصف السوق العالمية في القطاعات الأساسية (الطايران ، الفضاء ، الالكترونيات ، الكهربائيات ، المكونات الالكترونية والسوفت وير) . هذا الاتجاه المتزايد للتمرکز يتناهى مع العقلانية الاقتصادية ويزيد التفاوت الاجتماعي والاحساس بالقهر بالنسبة للأغلبية العظمى من العاملين بأجر والمواطنين .

أما بالنسبة إلى تنامي السوق المالية الدولية وأهميتها ، فنكتفى بالإشارة إلى أن تحويلات عام ١٩٩٥ وحدها بلغت ١٢٠ مليار دولار يومياً ، والتجارة الدولية ٤٢٠ مليار دولار عام ١٩٩٥ . إن كتلة النقد العالمية جعلت منها سوقاً خاصة تحكم فيها الأمزجة وعدم الاستقرار ، وكلما ازداد التباعد بين النقد وقانون القيمة الموضوعى تحول النقد إلى عامل تضخم وأزمة عميقة .

وما تزال الدول العربية على اعتاب القرن الحادى والعشرين رهينة قسمة عمل دولية كولونيالية قديمة ، كمنتج ومصدر للمواد الخام مما أضعف قدرتها التفاوضية فى قسمة العمل . وهى تتعرض للتهميش والتبعاد فى المواقف العربية تجاه التحولات الجارية عالميا . ورغم وضوح المخاطر التى تتهدد مشروعها القومى و هويتها التاريخية والثقافية ، مما زالت بعيدة عن التضامن فيما بينها . لقد تأثرت الاقتصادات العربية بحدة نتيجة تراجع أسعار النفط فى أوائل الثمانينيات ، مما أدى إلى معدلات نمو سلبية خلال أعوام ١٩٨٠ - ١٩٩٠ . وبلغت ديون الدول العربية (عدا العراق) حوالي ١٥٥٧ مليار دولار سنة ١٩٩٤ . ومن جراء المديونية صارت أغلبية الدول العربية تطبق أوائل التسعينيات برامج التكيف الهيكلى ، التي تنطوى على تقليص دور الدولة الاقتصادية وفتح أسواقها للتجارة الدولية وإطلاق الحرية لرأس المال المحلي والأجنبي . وتفضى برامج التكيف الهيكلى إلى ضرورة بيع المؤسسات العامة ، وهو هدف رئيسي للعولمة . ولا تجد المشروعات المطروحة للبيع للقطاع الخاص (الفخصصة) مثل قطاعات الاتصالات والطاقة والنقل المستثمرين المحليين القادرين على ادارتها وتطويرها مما يؤدي إلى التخلى عن السيادة والاشراف على الاقتصاد资料 الداخلى لمصلحة رأس المال العالمي ، وإدماج هذه القطاعات فى الانتاج الرأسمالى المعولم .

إن تشكل النظام الاقتصادي العالمي يمر بمرحلة صراعية حادة ، ولا يزال لدى الدول النامية إمكانية لجعل هذا النظام يحقق العدل والمساواة ، ويقترب الباحث على العرب العمل فى الاتجاهات التالية :

- ١- تعزيز دور الدولة التنموى ، وأخذ مصالح أغلبية المواطنين بعين الاعتبار ، وتطبعهم نحو الديمقراطية والعدالة الاجتماعية .
- ٢- الحد من نفوذ رأس المال الأجنبى ، ووضع ضوابط لحركة رأس المال资料 بما يخدم عملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى كل بلد عربي .
- ٣- تطوير التكامل والسير بجدية نحو تشكيل كتلة اقتصادية عربية ذات مشروع تنموي وحضارى مشترك .

٤- تنفيذ الاتفاقيات العربية فيما يخص حرية تنقل العمالة والأفراد في
ما بين الدول العربية.

إن العولمة تعمل على إضعاف دور الدول النامية وتقوية دور كل من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي واليابان . ولابد من تشكيلاً مشروع عربى فى مواجهة ما يفرض على الدول العربية ، مشروع يطلق الحريات الديمقراطية ويحترم حقوق الإنسان وحرياته الفردية والجماعية كشرط أولى لإنطلاق هذا المشروع مما يجنبنا الأخطار المحدقة بالهوية . إن الديمقراطية والتكميل والتنمية ، عناصر لا غنى عنها فى مواجهة النظام المعلوم والحيولة دون الاندماج فيه . ولعل البحث المقدم من د. نبيل مرزوق يمثل تعبيراً واضحاً ومهماً عن هذا الاتجاه .

جلال أمين، العولمة وإخفاق دور الدولة القومية ..

فى ندوة « العرب والعولمة » التي عقدت فى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٩٧، تحدث كذلك الدكتور جلال أمين أستاذ الاقتصاد فى الجامعة الأمريكية فى القاهرة عن موضوع بعنوان « العولمة والدولة » فذكر أن ظواهر جديدة ظهرت فى الثلاثين سنة الأخيرة لصالح العولمة أهمها ، حدوث زيادة كبيرة فى تنوع وتكتف السلع والخدمات و مجالات الاستثمار ، ودخول تبادل المعلومات والأفكار والقيم إلى جانب تبادل السلع ورؤوس الأموال ، وهيمنة الشركات متعددة الجنسية فى انتقال السلع ورأس المال والمعلومات وجعل العالم كله مسرحاً لعملياتها . وما يرحب جلال أمين فى إبرازه ، هو تغير دور الدولة فى العولمة الراهنة .

فمنذ خمسة قرون شهدنا ظاهرة الدولة القومية فى بدايات تشكل العولمة ، وكما حلّت الدولة القومية محل القطاعية ، تحل اليوم الشركات متعددة الجنسية محل الدولة فعلياً وإن ظلت الدولة قائمة صورياً . وثمة ما يتعلّق بالتقدم التكنولوجي الذى يحتل مكانة حاسمة فى العولمة ، كالترويج لبث المعلومات على شاشات التلفزيون والكمبيوتر ، ولا فكار من نوع نهاية الأيديولوجيا ونهاية التاريخ والقرية العالمية . فهل صحيح أن نفوذ الدولة قد

انحصر مع تغلب العولمة؟ في نهايات السنتينيات صارت الأسواق الوطنية أضيق . ودخلت الدول الصناعية في تنافس جدي . وكان هذا بداية عصر الشركات متعددة الجنسية ومتعددة الجنسيات ، التي تنطلق من السوق الوطنية الضيقة إلى العالم بأسره . وحلت الدول التاثيرية والريجانية محل الدولة الكيتيزية . لم تختلف الدولة إذن ، إنما طرأ تغير على وظائفها . تقلص دور الدولة الاقتصادي وضمان حرية التجارة ، حرية تحويل رؤوس الأموال ، تهديم الحاجز السابق الذي أقامتها الدولة في المرحلة السابقة . إن الشركات متعددة الجنسية تتخطى حدود الدول وعلى العمال أن يقبلوا بارتفاع معدلات البطالة . فيما سبق كانت الدولة تقوم بدور فعال لإعادة توزيع الدخل وعليها الآن مع بزوغ نجم الشركات متعددة الجنسية أن ترخي قبضتها شيئاً فشيئاً ، وأن تقوم بتسليم وظائفها للشركات الدولية أو المتعددة الجنسية ..

إن الشركات متعددة الجنسية ، التي ترفع الآن شعار العولمة ، تضعف دور الدولة . وبين الذين يبشرون بالعولمة من ينظر إلى التحرر من ربقة الدولة القومية كعملية تحرر وخلاص . إن العولمة توفر مبدئياً سرعة النقل والمواصلات وتقتلم الحاجز أمام انتقال السلع والأفكار والثقافة . والأشياء التي تجري عولتها هي محتوى ملتبس لشكل العولمة . فهل يمكننا أن نقبل بالعولمة بالطريقة السهلة التي يجري بها الترويج لها؟ هل تعتبر عملية تمجيد العولمة والثقافة والاستهلاك شيئاً سوى أيديولوجية صارخة في تعصبها وضيق آفاقها وقلة تسامحها مع أية نظرية مخالفة؟ .

إن العولمة ليست محاباة بين الحضارات والثقافات ، بل هي عولمة حضارة بعينها ، وهي ليست حتمية كما روج لها . والقول بأن التقدم العلمي والثقافة حتميان ، لا يلزم أن يقبول كل ما في الحضارة المسيطرة من نتائج . ويمكن أن نتصور تقدماً في العلم والثقافة ، دون تحقيق أقصى حد من الأرباح والسيطرة على الطبيعة واستغلال الفرد ، كما ت يريد الرأسمالية الأمريكية . إن القول بأن العولمة حضارة توافرت لها منذ خمسة قرون من سيادة الرأسمالية ، وسائل فرض نفسها على الأمم الأخرى ، يجعل فصل حركة العولمة



عن الرأسمالية أمراً متعدراً . وما تطالبنا به الرأسمالية الأمريكية اليوم هو ترك أمورنا ترتب من قبل الشركات متعددة الجنسية ومتعددة الجنسية . لكن المفروض أن نتابع مقاومة العولمة، دون الاعتماد على أمور تمت عولتها وأن تظل هذه المقاومة رمزاً للدفاع عن الاستقلال الوطني والتكامل الاقتصادي العربي والتنمية المستقلة والتحرر من التبعية للسوق العولمة وعن الكرامة الإنسانية والعدالة الاجتماعية .

ختاماً: لقد انطوت أبحاث كل من محمد الأطرش ، نبيل مرزوق ، مفید حلمى ، جلال أمين ، رهيف فياض وإسماعيل صبرى عبد الله ، على تنبيه كبير من خطأ العولمة واعتبارها إعادة واستمراراً لهيمنة الغرب الرأسمالي على العالم . ففي حين كانت أبحاث الأساتذة السيد يسین وصادق جلال العظم وبول سالم ، تسعى بأشكال مختلفة إلى ضرب من التكيف مع العولمة والقوى الداعمة لها ، وإلى التأكيد على عدم قدرة المعارضين للعولمة على مواجهة تيارها ، لكن النتيجة تدل على أن العولمة في المناقشات النظرية الدائرة ، قد ألحقت بها هزيمة كبيرة .

زى بسيط لأعوام قادمة

إبراهيم داود

لم يكن هناك
عندما وقعت انفجارات عديدة ...
في السنوات
التي حافظ فيها على حنجرته
ليصرخ عندما يخلو إلى نفسه
وأغنته عن ارتداء زى رسمي
 يجعله مميزاً بين جيرانه ...
جيранه الطيبين
الذين لم يشعروا بالدوى مرة واحدة
رغم إصابتهم جميعاً بأمراض الكلى

كان يحتفظ بحديقة في غرفة نومه
فتحها على البرنامج الموسيقى
لبنام بعيداً عن الأسلاك

الانفجارات
جعلته ينظر إلى قدميه

وهو يركض
ليتفادى أورام ظله
وهو ينتقل من غرفة إلى أخرى
لمشاهدة الماضي طازجاً ...
مع آخرين
خططوا لإغلاق النوافذ
لتجلو أصواتهم في الظلام

وعندما بيعت أحزانهم في المزاد
توقف الموسيقى أمام البيت
ونزل المقاتلون إلى البارات
وحدثت انفجارات إضافية
آخرها ..
أصاب الأفق بالشلل
وأحبط طموح الفلاحين
وجعل المسافر يقف أمام حبيبته
خائفاً
لأن الجسارة تحتاج رئة إضافية
لتستوعب المفاجآت

لم تحدث مفاجآت طوال هذه السنوات
لأن المداخل ظلت كما هي
ورحل كثيرون
وظل الذهب معدنا نفيساً
وبقى الليل في مكانه
يفسج الطريق أمام الوحشة
ويكتنل الجمر والحمى
ويصيب الغراء بالرمد والسعال

وخللت المرأة ألمًا مأساويًّا
يصيب الروح
مرت الأيام بطيئةً
ومضت السنوات بسرعةٍ
وتم تدريب الأشجار على الوحدة
واختصار المغنون الصحراء
فباخ العزف
وكبر الصغار بشكل مفاجئ
....

لم يدب النشاط في الموظفين الجدد
إلا في المطاعم
لأن العمارات الجميلة أصيبت بالربو
ونفس الرؤساء أيديهم من الخرائب
وتواترًا الملوك على الجيران
فاهتررت الصداقات
وجلس الشعراء إلى المهدئات
بعد سقوط البداهة في اختبارات العمل
وتشابه النساء في الأحضان
والثار
واختفاء الجنة من الأحلام
...

لم يكن هناك
لأنه أخلص في ادخار طفولته
وفراشاته
وألوانه
وحيله
وخطواته الواسعة



في انتظار أعوام أخرى
 يخلو الشارع فيها
 ليعوض مافاته في التسعينيات
 ويلبس زياً بسيطاً
 يجعله شخصاً عادياً بين جيرانه الطيبين
 الذين لم يشعروا بالدوى مرة واحدة
 رغم إصابتهم جميعاً بأمراض الكلى

يناير - فبراير ٢٠٠٠

أم كلثوم

بعيد عنك حياتي عذاب

أحمد عز العرب

حظى المسلسل التلفزيوني (أم كلثوم) باهتمام عام ومتابعة ربما لم يتوافراً لآى عمل آخر عرضه التلفزيون المصرى فى تاريخه . وبعد مرور أكثر من شهرين على إنتهاء حلقاته قد لا يتسع المجال لمزيد من الثناء عليه ، وإن كان كل المشاركين فيه جديرين بما هو أكثر من ذلك . إلا أن الأكثر جدوى الآن هو تأمل بعض ماطرحة علينا هذا العمل من قضايا وتساؤلات .

والعمل الفنى الجيد - فيما نحسب - هو ما يحفز المتلقين على المداخلة معه والتأمل فى رقعة أوسع من حدوده . ونتوقف الأن عند قضيتين طرحتما علينا هذا المسلسل الناجع

أولاًهما تتعلق بصبح الاستعارة التاريخية فى الأعمال الدرامية . والثانية تتعلق بتذبذب حركة القيم الاجتماعية والفنية فى المجتمع المصرى .

يعتبر التاريخ ، بأحداثه وشخوصه ، مصدرًا ثرياً للشعراء والقصاصين وكتاب الدراما ينهلون منه إما لدوافع فنية تتعلق بفنية الجنس الأدبى أو الفنى ، أو لدواع موضوعية . فالشعر - على سبيل المثال - بخصوصيته الفنية التى تتطلب بلاغة الإيجاز والكتابة المجازية يجعل الشاعر يميل إلى إستعارة رموز دلالاتها متعارف عليها فى الموروث الثقافى للقارئ ، وقد يكتفى به استخدام كلمة واحدة أو رسما واحداً من هذا الموروث ليفتح فى صدر قارئه فيضاً من الأحساس والمشاعر المرتبطة به . أو تعين القارئ على القراءة التأويلية للقصيدة والإبحار فى عالمها الشعري الخاص .

وتتوافر المتعة الفنية للقارئ والشاعر معاً من براعة التنقل بين المعانى المفصح عنها والمضمرة فيها فيما يشبه إيقاع النقلات الموسيقية ومتاحده من انتشاء روحي ونفسى . والتاريخ عندئذ مفتاح الشفرة المشتركة بين الشاعر والقارئ.

وما أكثر الحالات التاريخية فى شعر البياتى وأمل دنقل وصلاح عبد الصبور الذى لم يلجا إلى الإستعارة التاريخية فقط لهذا السبب بل أيضاً لدوع موضوعية تقف بوضوح خلف مسرحيته الشعرية الرائعة : " مأساة الحلاج ".

وفي الدراما التلفزيونية التى اتسع نطاق انتشارها وتاثيرها بما يتتجاوز بكثير ما حققه الشعراء والكتاب ، شاع الالجوء إلى الواقع والشخصيات التاريخية كنبع ثرى للموضوعات . وتأثرت معالجات كتاب الدراما التلفزيونية بعدة اعتبارات أخرى إضافية أولها: طبيعة الصلة بين المبدع والمتعلق لهذا الجنس الفنى / الأدبى بالذات .

في بينما تبدو الصلة بين الشاعر أو الأديب حميمية مباشرة مع القارئ بغير وسيط ثالث (فى الحقيقة هناك وسيط يتمثل فى " الناشر " إلا أن دوره محدود الآخر فى علاقة التواصل بين المبدع الشاعر أو الأديب والقارئ) بينما تبدو تلك العلاقة مستحيلة دون الطرف الثالث الذى يمثله جهاز التلفزيون كمؤسسة اجتماعية سيادية يحكم عملها و اختياراتها معايير خاصة . تميل إلى الإقرار بالواقع وتكريسه . من هنا يلقى الخطاب الإعلامى بظله على هذه الأعمال ، بدرجات متفاوتة . وهو خطاب مفارق بغير شك فى خصوصيته ومسعاه للخطاب الفنى .

في بينما يميل الخطاب الإعلامى إلى التقريرية وال المباشرة الدعائية أيا كانت طبيعة مصدره سواء من سلطة الدولة أم الشركات الخاصة . فاته يفضل التبريرات الجاهزة والترويج لأفكار المصدر الرئيسي ورؤيته الخاصة ، فى حين يبدو الخطاب الفنى أكثر تحرراً ميلاً لطرح الاستلة الجوهيرية ، فياض بالتمرد على الواقع الراهن .

ـ هذا الاختلاف بين بين الخطابين يبدو أثراً واضحاً فى المعالجات الدرامية للتاريخ بالشعر والرواية والمسرح أو فى السينما والتلفزيون . حيث يبدو الكاتب مثلاً باعتبارات وضرورات من خارج عمله الفنى وطبعه .

ـ ذلك الخطاب الإعلامى التوجيهى ترى ظله بوضوح فى العديد من الأعمال التلفزيونية التى عادة ما تدرج تحت عنوان المسلسلات الدينية والتاريخية الرمضانية . والتى تعبّرها عيون المشاهدين كأنها من بين المظاهر الاحتفالية بالشهر الكريم دون أن تختلف أثراً عميقاً فى نفوسهم ، لأن كتابها ومخرجيها

حددوا لأنفسهم من البداية غاية وأسلوبا في التعامل مع عناصر البناء الفنى . اما غايتها فتختصر فى تلقين المتلرج أفكارهم عن الحياة والفن ، وأما أسلوبهم فهو البحث بين وقائع التاريخ عما يؤكّد تلك الأفكار المسبقة . وتقديمها عبر شخصيات نمطية يجري التعامل معها ظاهرياً بوصفها " حاملات للأفكار لا باعتبارها كائنات حية . وبهذا تستحيل جميع تلك الشخصيات التاريخية إلى كائنات متحفية قد ينبع المشاهد بغرابة أعمالها أو عظمة مظاهرها لكنها تبدو منفصلة عنه انتقال التماشيل الصماء المرصومة في قاعة عرض متحفية .

وبالطبع لا ينجو من هذا المأزق إلا الكاتب والمخرج اللذان يتحليان بوعي عميق بالتاريخ ودراءة بوظيفته الاجتماعية . ومهارة فنية عالية .

وفي مثل هذه الحال تصعب المعالجة الدرامية للتاريخ ، قراءة جديدة لوقائعه وأحداثه وشخصوصه تسعى لفك ما استغل على الإدراك من القراءات السابقة ويصبح العمل الفنى في هذه الحالة تجربة بحث إبداعية مشتركة يسهم فيها بايجابية المشاهد نفسه مع الكاتب سعياً لاكتشاف خيوط الوصل بين الماضي والحاضر . بل إن الحاضر ذاته يتقدم ليصبح هو الموضوع الجوهرى المضمر (في بطん الكاتب) وما التاريخ إلا كاشف أو رافع لأسئلته العميقة . وحين يرى المشاهد في الأحداث والشخصيات الفنية بعضها من ذاته بطموحها وهموها يتفاعل معها تفاعلاً عميقاً حتى وإن ارتدت مظهراً تاريخياً قديماً .

صور من هذا التفاعل العميق عاصرناها عندما عرض التلفزيون المصرى بعض الأعمال الفنية التى توافر لصناعها من الكتاب والمخرجين شروط الوعي العميق والدراءة الفنية نذكر منها : رواية الأديب الكبير أبو بالعاطى أبو التجا (العودة من المنفى) عن سيرة المناضل الشاعر عبد الله النديم . وسيرة العميد طه حسين عن كتابه (الأيام) ورواية الكاتب جمال الغيطانى " الزيني بركات " التى كتب لها السيناريو الأديب محمد السيد عبد وأخرجها يحيى العلمنى . وقدم نفس المخرج أعمالاً أخرى مثل " رأفت الهجان " و " دموع فى عيون وقحة " للأديب صالح مرسى . وماقدمه أسامة أنور عكاشه فى " ليالى الحلمية " وزيزينيا ونستطيع أن نذكر أيضاً ونتذكر حالة الإعجاب العام بالمسلسل الأمريكى (الجنور) المأخوذ عن كتاب اليكس هيل الذى تناول حياة عائلة زنجية أمريكية منذ اختطاف جدها الأكبر من سواحل أفريقيا ليعيش حياة العبيد الزوج فى الولايات المتحدة - وبالمثل نذكر أيضاً نجاح المسلسل البالباني (أوشين) وبرغم غربة الأجياد الأجنبية التى دارت فيها أحداث المسلسلين المذكورين ، إلا أن الجوهر الانسانى مكن المشاهد المصرى من الإحساس والتفاعل مع أيطالهما .



في هذا السياق نجح الكاتب الكبير محفوظ عبد الرحمن والمرجع القيمة إنعام محمد على في اكتشاف "الجوهر الإنساني" لام كلثوم كفتاة مصرية طموحة ذات جلد وإصرار وليس شخصية خارقة للمالوف خصها الله بعطيته الصوت الموهوب ولارتبت لها الأقدار المصادرات السعيدة في طريقها ، بل شقته بكفاحها الطويل محاطة ببيئة اجتماعية تعلو فيها قيم البذل والعطاء والإخلاص للعمل.

بينما اجتماعية - تاريخية تعلو فيها قيمة الإنجاز الإنساني . لتمثل فيها أم كلثوم حالة خاصة فريدة بل نموذجاً لعشرات من نساء مصر ورجالها في كل مجالات العمل الإنساني شكلوا معًا طليعة مجتمعنا ناهض إلى تحقيق ذاته وتأكيد وجوده وهويته.

وذلك معالجة لا تدعونا للتأسی على (الماضي الجميل) ولا التباہي بتاريخ مضى بل تحفزنا للتساؤل عما أصاب حاضرنا وجعلنا كما نحن الآن .. وتلك أبلغ رسائل هذا العمل الفنى إلينا.

من بين التعليقات الصحفية العديدة التي ذكرت بها الصحف عن مسلسل أم كلثوم تحفظ بعض المعلقين على أسلوب الكاتب محفوظ عبد الرحمن في المعالجة التاريخية واتهامه ببعضهم بالإنتهاز والترويج لأنكاره السياسية الناصرية ، لتجاهله مرحلة ولادة "أنور السادات" وإغفاله لانتصارات أكتوبر العسكرية التي تحققت على يديه أو في ولايته ولستنا هنا بقصد دفع هذا الاتهام ، فالكاتب قادر على الدفاع عن نفسه لكننا نعتقد أن اختبار هذا الادعاء مناسب للكشف عن أسلوب ومنهج الكاتب محفوظ عبد الرحمن في معالجته الدرامية للتاريخ.

وبالطبع فإن هذا الاختبار لا يتم إلا من خلال النص الدرامي الذي كتبه وفيه قدم بعض الشخصيات بصورة مختلفة تماماً عن الصورة التي روجتها أجهزة الإعلام الناصرية عنهم . فقد لخصت تلك الأجهزة مرحلة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ واختزلتها في عبارة (العهد البائد) بكل ماتوحي به من نواحص وقصور وظلمات ، نقىضها هو (العهد الجديد) أو (الوليد) . ومن ثم فإن رموز ذلك العهد البائد من مثقفين وفنانين كانوا في تقدير تلك الأجهزة إما "مثقفي الانقطاع والرأسمالية" كما أطلق على طه حسين وعباس العقاد ثم زكي نجيب محمود ، وإما من مثقفي الثورة المضادة كما كان يطلق على لويس عوض وأنور عبد الملك ومحمود العالـم . أما فكري أباظة ومحمد التابعى وإحسان عبد القدوس ومصطفى أمين فهم كتاب الرجعية.

تلك الفكرة التي اعتنقتها بعض الضباط الصغار وأوردها محفوظ عبد الرحمن على لسان أحدهم في المسلسل ، وجدت في ذلك الوقت من بين الكتاب

والمثقفين من تطوع لمساندتها وتبصيرها نظرياً (راجع كتاب حلمي النعمى عن سيد قطب وثورة يوليو) وهي نفس الفكرة التي حطت من أقدار رجال وطنيين مثل مصطفى النحاس الذي عاش أواخر أيامه في مأساة إنسانية عميقها التجاهل والإهمال . وهي نفس الفكرة التي كادت تطول (أم كلثوم) ذاتها وتنعم أغنياتها ، لو لا إعجاب عبد الناصر نفسه الشخصي بفنها . ذلك كله لم يتجاهله المؤلف محفوظ عبد الرحمن في عمله بل قدم أيضاً : فكري أبياضة ومصطفى أمين ومحمد بك البابلي ومصطفى باشا عبد الرزاق ومصطفى رضا بصورة مختلفة عما صورهم عليه أسلوب التنبنيط السياسي المتعصب.

وفي عمله الفني السايق (بوابة الطوانى) لم يقدم عبد الرحمن شخصية الخديو اسماعيل في تلك الصورة التي روتها عنه المتعصبون الناصريون كحاكم سفيه مضى في ركاب الغرب الاستعماري كدمية في خدمة أسياده المستعمرين ، بل قدمه كشخص تتصارعه أحلامه وتحوطه قوى مختلفة تتصارع من حوله في الداخل والخارج . وهي صورة أكثر إنسانية وموضوعية . توضح أن الكاتب لم يشرع في عمله بحثاً عما يؤكد لدية يقينه المركزي ، بل هو يبحث من جديد في التاريخ في صحبة المشاهد لتجربة إبداعية مشتركة بينهما تعيد بثرو فحص الواقع وإثارة التساؤلات.

وربما يكون لهذا النهج الخاص في المعالجة الدرامية للتاريخ فضل إثارة اهتمام قطاعات واسعة من الشباب ومقارن السن وحرصها على مشاهدة عمله «أم كلثوم» وتلك ظاهرة اجتماعية جديدة بالتأمل والبحث في أسبابها . فقد تكشف لنا زيف الصورة التي تحفظها عن شبابنا . أو قد تكشف مما يدور في أعماقه بعيداً عن تصورنا وما قد يحتاجه ويشتاق إليه.

لا يمكن أن تكون حالة الفوضى المعنوية والمعرفية التي نشكو منها ونشكو فيها تعارض وتعدد الدلالات والمعانى والتباين القيم مجرد حالة تخص قطاعاً من المثقفين والكتاب القادرين على الجهر بالشكوى . بينما القطاع الأكبر من شبابنا بعيداً عنا وعنها . وأنه ما زال يهفو إلى ما يبحث فيه مشاعر الثقة بالنفس وبالوطن ؟

لا يمكن أن يكون مستقبل هذا الوطن نجماً غائماً بعيداً عن أعيننا وسط سحب الظلام الراهن ؟ وأن يكون شروقاً قائماً وإن معيب علينا رؤيته ؟ ربما .

أسيير

خالد سليمان

لم يكن في حالة تسمح له بتقييم الموقف سواء كان بالنسبة لأحداث الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ولم يكن باستطاعته أن يجزم بأن ما حدث له هو حالة من حالات الهدىيان، أم أنها حالة شطع أو سكر بفعل الوجد، أم أن ذلك كان تلبيس الشيطان .. الذي تحدث عنه السادة الصوفية، لكن الإصطدام والاحتراق كانا المصير.. وهو يريد ألا يريد حتى تظل هي المراد وهو المريد، ولم يكن يتصور أنه بعد الكشف سوى الطلول والاتحاد .. والتدرج أو بالأحرى التسامي والسمو نحو مقام الفنان إن لم يكن قد تجاوزه إلى فناء الفنان، بيد أن الأمر الذي أصبح يورقه هو ذلك السؤال العقبة الذي بات يفرض نفسه فرضياً .. هل يمكن أن يكون بعد مقام الفنان أو فناء الفنان كشف آخر؟ وهل يمكن أن يترتب على ذلك استرداد أئمة المتعالية مرة أخرى.. بعد الفنان أو فناء الفنان؟، لم يبق لديه الآن سوى الإحساس بالمرارة والحسرة على شعوره الرائع بالذوبان الذي كان في البدء أيام كانت هي الكلمة..! لم يكن يتصور أنه يمكن أن يكون هناك كشف آخر، كما لم يتحدث أحد من أشياخه عن ذلك الأمر من قبل...، أو لم يصادف على الأقل كلاماً لهم عن كشف قد وقع بعد فناء الفنان..، ولم يعد له مرجعية سوى روحه لأن لا يدرى إن كانت روحه فعلاً أم روحها بعد أن فتى فيها وأصبح هو هي أو هي هو.. منذ زمن طويل قطع فيه مائة ألف فرسخ من المشاعر النورانية وقتها كشف له وحلت فيه واتحدت به...، أما اليوم فهو ينزف تساولاً.. هل يمكن لأناء المتعالية أن تنسلخ منها وتتعالى عليه.. بعد أن ظن أنها تعاهد معها؟ ... أم أن التماهى لم يحدث أصلاً وكان ما حدث مجرد تلبيس؟، أم أن الأمر كله كان



تليبيساً في الماضي والحاضر وحتى المستقبل؟ .. أم تراه كان صانع الصنم الذي عبده أو استعبد؟ هل هو من صاغ الأكذوبة وأبحر فيها حتى صدقها؟ .. الكارثة أنه الآن لا يستطيع الفكاك .. لم يعد في امكانه تحرير أنفاه المتعالية.. وكلما ظن أنه حررها .. يفيق على مصلحة أغلال جديدة تكبله أكثر.. وقد لا يكون الأمر كله كما يتưởng وأن استرداد أنفاه المتعالية وتوهمه أنها صنم صنعه بيديه هو التليبيس بعينه! من منها الذي لم يرق إلى الآخر؟، تماهياً أم لم يتماهيا؟، حقيقة أم وهم وتليبيس؟ ومتى كان ذلك في البداية أم في النهاية، من الآسر ومن المأسور؟، وهل بعد الكشف كشف؟ أم أنه ليس بعد الكفر كشف؟ ..

وتبقى تساؤلاته بلا طائل أو جدوى، وما زال الشوق يزيده اصطداماً واحتراقاً فيزرع عنه جداً وشجاً .. ولا يحصدانه إلا شطحاً وسكتاً ووجداً جديداً يملا شراعه بالشوق الذي يدفعه نحو اصطدام واحتراق جديدين .. ليواصل الغرق أو الإبحار في محبيتها اللا متناهٍ، فيزداد يقيناً أنه لا فكاك .. حتى وإن ظن أنه الفراق لتحتوبه غلة سرمدية .. وهو لا يستطيع أن يجزم إن كان ما يعانيه تليبيساً أم احتواء ما بعد فناء الفنان ..

نقوش غائرة على حجارة متناثرة في مقبرة آيلة للسقوط

قاسم مسعد عليوة

جمعت مادة هذه القصة
بمعرفة عالم في المصريات

الحجر الأول مساعدات المحاولة الأولى

أيها الناس والآلهة ضعوا أذرعكم تحت الملك (أنو - رع) وارفعوه عالياً .
أوصلوه إلى السماء . مدوا أذرعكم كما يمد "شو" ذراعيه وهو يرفعها . اصعدوا
بالتقى الورع (أنو - رع) إلى السماء ليتبوا مقعده العظيم بين الآلهة العظام .
لاتقولوا إن ذلك يعجزكم . إن صعود (أنو - رع) أمر واجب . هكذا شاء . إذن
فلسوف يصعد .

فلتساعدينه با" قبحت" يابنته إلهنا الجنائزى القديم "أنوبيس" ضعيه على
كتفك وارفعيه ليجلس فى الحادائق العليا كراعى العجول . ولتلتجأ إلى قلبك
التقى أى (أنو - رع) الطيب يهيك ثباتا . إن قلبك يا (أنو - رع) قوى . نعرف
أنك به لن تيأس . نعرف أنك به لابد وأصل .

هاك "إيزيس" و"نفتيس" قد جاءتا طائعتين لتقديم عنونهما لك . تعاليا أيتها
الكريمتين وساعدنا ملكتنا (أنو - رع) على الصعود إلى صقع السماء الشرقي
حيث يولد أبوه . رع كل صباح . هاهما تتقدمان نحوك ياملكنا المؤمن

وتنثنين جزعيهما وتقدمان عجزيهمما لك . اصعد عليهما أنها الملك(أنا - رع) المجد . اصعد . إن "جب" نفسه يرفع أرضه ليصل بك إلى السماء . وهاهي "تفنوت" وقد دلت ذراعيها لتعينك على الوصول إلى الحقول السماوية بعد أن تفتح بوابة السماء المزدوجة بتعويذتك السحرية وكلماتك المؤمنة . اثبت يا(أنا - رع) المجد . تمالك . لا تترفع . تشتبث بجداول نفتيس(لاتسقط) . لقد بذلكنا غاية جهدنا . لاتسقط . لن نقدر على تقديم شيء بعد . لاتسقط .. لاتسقط .. لاتسقط.

تعليق جامع المادة :

يبدو أن هذه المحاولة قد باءت بالفشل .

الحجر الثاني دأب المحاولة الثانية

صلة:

رأيت أنا(أنا - رع) الملك المجد أن الوصول بلا كهنة أفضل ، والاتكاء على عصا تقوى أجدى ، فساعديني أى "تفنوت" المباركة .. إبني أكل بنفسي إليك ، وقد أحرقت البخور العظيم لأجلك . اعطيتني جناحين منشورين كصقر له ريش غزير وأصعدتني للسماء لأقدم فروض الولاء لوالدي "رع" العظيم ، وأقوم على خدمته ، وأجده لقاربه في عبوره الدائم لصفحة "نوت" . لاتشيحني عن بوجهك واصفي إلى . إبني أنا (أنا - رع) التقى المؤمن . مدي أثر عوامضك وتحسسيني لنتائجى من رقة عودى .. سلطني عينيك ذاتى النظرات الهاشمة على عيني الهاشمتين لتعلمى أى وداعية تحويان . إبني أنا(أنا - رع) المشهور بتقوى التى تضارع تقوى الآلهة . اصفي إلى ولا تكونى كالملاح ذى الوجه المتطلع إلى الخلف .. ذلك الواقف فى مؤخرة قاربه الراسى فى بحيرة الزنبق الواسعة بين الأرض والسماء . لقد رأيته بالرغم من طول البحيرة الشاسع وتعرجاتها العديدة . قلت له: " تعال واجعلنى أعبر فى قاربك إلى الشاطئ الشرقي للسماء ، إبني أنا (أنا - رع) البار فى نظر السماء والأرض .. لكنه لم يجيء قلت له: " سأجعلك مهرجى الخامس وستختمس بادخال السرور إلى قلبي وأتنا جالس على عرشى العظيم فى الجانب الشرقي من السماء .. لكنه لم يأت . فقط قال : " من أنت؟ لم أكن أتصور أن أحداً لا يعرفنى ، أنا من لهجت بذكر مآثره الناس والآلهة . قلت له : " مامن أحد فى مصر

لايعرفنى . كيف لم تسمع عنى؟ .. إننى أنا (آنـو - رع) .. ولم يرـه ياـتفنوتـ المباركة على سـؤالـى . فقط أـعقب بـعبارة قـصـيرة .. جـد مـقتـضـبة .. وـطالـعنـى بـوجه شـدـيدـ الجـهـامـة . قال ياـتفنوتـ العـظـيمـة : " لـن تـعبـرـ لـذـا ، أـلـحـا إـلـيـكـ وـعلـمـى بـقـدرـتـكـ عـلـى الإـتـيانـ بـأـعـظـمـ الـأـعـمـالـ يـمـلاـ عـلـىـ جـوارـحـى ، فـأـسـعـدـيـنـى أـىـ تـفـنـوتـ المـبـارـكـةـ لـلـسـمـاءـ حـيـثـ أـتـبـوـاـ مـكـانـىـ فـىـ صـقـعـهـ الشـرـقـىـ فـىـ خـدـمـةـ أـبـىـ .

موـتـنـوـلـوجـ:

أـه .. انـظـرـوا يـاسـكـانـ الـأـرـضـ . إنـنىـ أـطـيرـ عـلـىـ دـخـانـ حـرقـ الـبـخـورـ الـعـظـيمـ . بـعـيـدـاـ عـنـكـ يـاسـكـانـ الـأـرـضـ أـطـيرـ . هـاـنـتـمـ تـرـونـىـ أـطـيرـ كـسـحـابـةـ إـلـىـ السـمـاءـ ، إنـنىـ أـرـتـقـعـ مـثـلـ صـقـرـ ، وـسـأـشـلـ إـلـيـهـاـ مـثـلـ إـلـهـ الـأـفـقـ " حـرـ أـخـتـىـ " . هـاـهـوـ سـلـمـ مـضـىـ يـدـلـىـ مـنـ أـجـلـىـ . أـيـهـاـ النـاسـ إنـنىـ اـمـتـطـىـ الضـوءـ . إـنـ أـمـسـتـ " وـ " حـابـىـ " وـ " دـوـامـوـتـ " وـ " قـبـعـ سـنـوـافـ " ، أـبـنـاءـ حـورـسـ الـأـرـبـاعـ يـعـدـونـ السـلـمـ لـىـ ، وـيـحـكـمـونـ رـبـطـهـ لـأـجـلـىـ . إـنـ " شـسـيـاـ " نـحـتـ أـخـشـابـهـ ، وـ " قـاسـوـنـىـ " رـبـطـتـ حـبـالـهـ بـسـيـورـ مـنـ عـنـدـهـاـ ، وـالـقـوـائـمـ عـلـىـ الـجـانـبـيـنـ شـدـتـ عـرـاـهـاـ بـجـلـدـ مـنـ الـبـقـرـةـ " حـسـتـ " .

هاـهـىـ بـوـاـبـةـ الـقـطـرـ الـسـمـاـوىـ الـمـزـدـوـجـةـ تـلـوحـ أـمـامـىـ مـقـفلـةـ جـهـةـ كـعـادـتـهاـ فـىـ أـوـجـهـ الـغـرـبـاءـ . مـاـعـدـاـيـ أـيـتـهاـ الـبـوـاـبـةـ . مـاـعـدـاـيـ . إنـنىـ أـمـلـكـ التـعـوـيـدـةـ . أـنـاـ أـمـلـكـ السـرـ . أـيـتـهاـ الـبـوـاـبـةـ الـعـالـيـةـ التـىـ لـاـيـدـعـوـهـاـ أـحـدـ بـاسـمـ . يـاـبـوـاـبـةـ " نـوـتـ " ، إنـنىـ أـقـفـ قـبـالـتـكـ . أـىـ " نـوـنـ " الـعـظـيمـ اـجـعـلـىـ هـذـهـ الـبـوـاـبـةـ تـفـتـحـ لـأـجـلـىـ هـاـهـاـهـىـ . تـفـتـحـ .. إـنـ بـوـاـبـةـ الـقـبـةـ الـمـزـدـوـجـةـ فـتـحـتـ عـلـىـ مـصـارـيعـهـاـ لـىـ .

تعليق جامع المادة.

نجاح هذه المحاولة لا يحتاج لايضاح أو تعليق.

الحجر الثالث

التحول

أمرـإـلـهـىـ :

أـنـتـ يـاـلـهـ السـمـاءـ السـفـلـىـ ، أـمـرـكـ أـنـاـ الـعـظـيمـ الـمـعـجـدـ " رـعـ " بـالـتـجـمـعـ لـاستـقـبـالـ هـذـاـ الـمـلـكـ (آـنـوـ - رـعـ) بـالـبـهـجـةـ وـالـفـرـحـ الـلـازـمـينـ ، وـلـتـلـقـواـ حـينـ ظـهـورـهـ بـخـفـافـكـ الـبـيـضـ ، وـلـتـطـرـحـواـ أـرـدـيـتـكـ ، وـلـتـقـولـواـ لـهـ : " إـنـ قـلـبـنـاـ لـمـ يـفـرـجـ إـلـاـ حـينـ قـدـومـكـ " .



الفرج الغريب:

يَا إِلَهُنَا الْمَبَارِكُ "رَعٌ" أَغْثِنَا

إِنَّ الرُّبُّ قَدْ تَعْلَمَنَا

فَوْرٌ رَؤْيَتْنَا لِسْحَنَةٍ هَذَا الْمُنْتَسِبُ إِلَيْكَ.

لَمَّاذَا أَمْرَتْنَا نَحْنُ إِلَهٌ بِاسْتِقْبَالِهِ؟

لَيْسَ هَذَا هُوَ (أَنْو - رَعٌ) التَّقِيُّ الْوَرَعُ

لَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ سْحَنَتِهِ الْوَدِيعَةِ

وَلَاهُذَا مَسْلَكُهُ

أَتَرَاهُ قَدْ خَدَعَكُ وَأَنْتَ إِلَهٌ الْعَظِيمُ الْمَجْدُ؟

أَمْ أَنْكَ فَعَلْتَ هَذِهِ الْحِكْمَةَ تَرِيدَهَا؟

كشف النقاب:

أَنْتَ يَامِنْ تَسْكُنُونَ هَذَا الصَّقْعُ السَّمَاوِيُّ مِنَ الْإِلَهِ ، لَقَدْ وَصَلْتَ أَنَا (أَنْو - رَعٌ) الْمَجْدَ إِلَيْكُمْ . أَقْبَلُوا . أَعْلَمُ أَنَّ الرُّبُّ الَّذِي يَسْتَولِي عَلَى أَفْنَادِكُمْ لِجَدْ شَدِيدٍ . ارْهَفُوا أَسْمَاعَكُمْ لِلَّذِي أَقْوَلُ . إِنْ سَرُورِي بِخُوفِكُمْ لِيَضْمَارِعُ . لَقَدْ أَثْبَتْ أَنَا (أَنْو - رَعٌ) بِأَنَّ خَدَاعَ النَّاسِ وَالْإِلَهَةِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ . نَفَضُوا عَنْكُمْ هَذِهِ الْبَلَاثَةَ فَمَا كَانَتْ تَقْوَى سَوْى قَنَاعِ كَافِنَّةِ الْمَوْتِيِّ . إِنْ أَحَدًا مِنَ الْبَشَرِ وَالْإِلَهَةِ لَا يَهْمِنِي . حَتَّى هَذَا الَّذِي يَضْئِنْ وَأَنْتَسِبُ إِلَيْهِ . إِنِّي أَعْرَفُ اسْمَهُ . وَلَا يَجْهَلُهُ . إِنْ (اللَّانْهَائِي) هُوَ اسْمُهُ ، وَاسْمُ أَبِيهِ هُوَ (مَالِكُ الْعَظَمَةِ) ، وَأَمِهِ (الرَّضِيِّ) الَّتِي تَحْمِلُهُ كُلُّ صِبَاحٍ . أَخْبِرُوهُ قَبْلَ ذَهَابِي إِلَيْهِ بِأَنَّ مُولَهُ (اللَّانْهَائِي) فِي الْأَفْقَ سَيْمِنْ إِذَا مَاهِمْ بِالْتَّفَكِيرِ فِي مَنْعِي مِنَ التَّوَاجِدِ فِي هَذَا الْمَكَانِ . وَلَتَسْمَعُونِي أَنْتُمْ أَيْضًا . كُلُّ إِلَهٌ أَوْ إِلَهَةٌ يَعْتَرِضُنِي وَلَوْ بِرُفْعِ ذِرَاعِهِ فَلَسْوَفْ أَتَخْذِ ضَدَهُ أَشَدَّ الْأَعْمَالِ عَنِّفَاً . انْسُوا قَنَاعِ الْوَدَاعَةِ وَالْوَرَعِ الَّذِي كُنْتَ أَرْتَدِيهِ . إِنِّي (أَنْو - رَعٌ) الْمَرِيدُ . مَنْ يَجْرُو مِنْكُمْ عَلَى الْاعْتِرَاضِ فَلَنْ أَسْمَعَ بِقُلْحِ الْأَرْضِ لِأَجْلِهِ ، وَلَنْ يَقْدِمْ إِلَيْهِ قَرْبَانِ ، وَلَنْ يَعْبُرْ لَهُ لِيَوْبُولِيسْ لِتَنَاؤلِ طَعَامِ الصِّبَاحِ وَطَعَامِ الْمَسَاءِ . إِنِّي أَنَا (أَنْو - رَعٌ) الَّذِي يَكْلُمُ بَعْدِ مَا خَلَعَ مَخْدُوكُمْ بِهِ : إِنْ مَآلُ الْعَاصِيِّ مِنْكُمْ هُوَ بَطْنِي . بَطْنِي أَنَا .. أَنَا (أَنْو - رَعٌ) الْعَظِيمُ.

تعليق جامع المادة:

دهمتنا دهش شديد لم تخراج منه إلا بعد العثور على الحجرين التاليين.

الحجر الرابع من يكائية طويلة

إن السماء تظلم بالغيوم

والنجوم تتهاوى كالملط
وعظام كلاب جهنم ترتعد
والبيوابون واجمون
عندما يلوح الملك (أتو - رع) بوجهه المنفر

**

إن الملك (أتو - رع) يأكل الرجال
ويتغذى بالآلهة
وتابقش خصل الشعر يشد وثاقهم إليه
حاكم إن الشعبان هو الذي يحرسهم له
ويكبح جماحهم لأجله.

**

هاهو الملك (أتو - رع) يلتهم الناس والألهة المجددين
كبارهم لأجل وجبة الغطور
وصغارهم لأجل وجبة العشاء
والعجائز لأجل حرق البخور
وسيقان أكبرهم سنًا كوقود.

**

إن المقيمين في الأرض والسماء يدورون لأجل الملك (أتو - رع)
لقد أكل الأحمر ، وابتلع الأخضر
ويتغذى على الأعضاء المتللة
لقد ابتلع معرفة البشر والألهة
حاكم .. إن البشر والألهة في بطん الملك (أتو - رع).

الحجر الخامس

الشكابة

يإليهنا العظيم "رع" .. يامن أوجدت نفسك بتنفسك ، وخلقت الوجود من
بعد .. إن (أتو - رع) الذي أصعدته إلى سعوك السماوي المقدس جار علينا
وسخرنا لخدمته . لم نكن نظن به إلا الخير . لكنه أداخ الآلهة ، ومن جرؤ على
الاعتراض التهمه . انظر ، إنه من مكانه في السماء يرسل بغضبه على سكان
الأرض . كان يتحلى بصفات الورع والتقوى إلى أن دانت له أمرتنا . إن

ملكتك ستخرب بسبب هذا الذى يننسب إليك .. إنه يقول بأنك ولدته ، لكنه أقوى منك . لقد تشارونا نحن الآلهة ، ورأينا يإلهنا المجد أن لا خلاص لملكتك من شره إلا بأحد أمررين : فاما أن تسلط عليه " حتحور" لتفترسه بقوتك ، وإما أن تفتح بوابة السماء وتلقى به إلى " جب" فى أرضه ، وفي كلا الأمررين يجب أن يموت .

نقش كبير على قاعدة عامود مكسور

حكت أنا رع العظيم بأن يعود (أتو - رع) لبلده ، ويترك أمره لشعبه .
تمهيش(١) :

عشنا على لوحة مشروخة من الجص مكتوب عليها " قبر المخادع (أتو - رع)
المقتول بأيدي شعبه .. أقيم بقصد الاعتبار" .

تمهيش(٢)

حينما فتحنا التابوت لم نجد أية جثة ، فقط عشنا على بردية مكتوب
عليها " أغاظنا نحن البسطاء أن ينام فى قبره مستريحاً فالقينا بحثته لدواب
الارض" .

تمهيش(٣)

لما كنا متيقنين من أنه لم يكن فى مصر منذ عصر ما قبل الأسرات حتى
أواخر القرن الأول قبل الميلاد أى فرعون باسم (أتو - رع) لذا فانه جارى
فحصتنا لمواد المقبرة لتحديد زمانها فلربما كانت تنتمى لعصر مامن عصور
ما بعد الميلاد .

ثبت:

شو: إله الرياح

أنوبيس: إله جنائزى

قبحت: إبنه أنوبيس

ازيس ونفتيس: أختا أوزوريس وست فى الأسطورة المشهورة

جب: إله الأرض

تفنون: إله العواصف

نوت: إله السماء

حورس: ابن أوزوريس وإيزيس

تحتوري: إله الانتقام



جرّ شَكْل

فريد أبو سعدة : نقاد التراحيل /
عادل العراني : دريدا والتضكيكية المستحيلة
محمود خير الله : أقذفهم بقصيدة نثر

نقد التراحيل !!

فريد أبو سعدة

لوبى جديد ظهر فى حياتنا الثقافية . يتكون من المدعين ، المتبطلين فى هيئة قصور الثقافة من جهة والجامعات الإقليمية والصحافة من جهة أخرى !! لاشك أن الهيئة تلعب دوراً هاماً فى حياتنا . ولأن هذا الدور متشعب ومتعدد فقد أصبح لها أخطاء كبيرة ومتعددة أيضاً . فمنذ تطلعت إلى الأكاديميين من جهة والصحفين من جهة أخرى لتسعيهم فى أداء رسالتها وهى ضالعة ، دون أن تدرى ، ثم وهي تدرى بعد ذلك ، فى صنع وتغذية هذا اللوبى .

لن أتحدث عن أخطاء مثل التفرقة بين أدب الأقاليم وأدب العاصمة ، ولا عن التكريس لهذا بأشكال مختلفة ، حتى بدا الأمر وكأنها ترعى حرباً أهلية !! لا . بل أتحدث هنا عن هذا اللوبى الذى يتكاثر مثل القطر وينتشر كالسحب السوداء . ففي كل مؤتمر من مؤتمرات أدباء الأقاليم أو « الأدباء في الأقاليم » !! تجد هذا الفيلق من الصحفيين جنباً إلى جنب مع نقاد التراحيل من مدرسي الأدب بالكليات الإقليمية . ولاشك أن تكرار ذلك على مدار العام قد صنع علاقات حميمة بين الأطراف الثلاثة ، الأمر الذى جعل الوجوه هى هى تتكرر في كل مؤتمر.

موظفو الهيئة معذرون . فهم كموظفين محذكين يعرفون أن معايير نجاح المؤتمر : أولاً وثانياً وثالثاً هي المديع العالى فى الصحف !! والمديع لايتاتى بالطبع إلا (باراحة) الصحفيين وإرضائهم ! . أما رابعاً وخامساً وسادساً (من باب الاحتياط) فهى طبع بعض الدراسات عن بعض الكتاب . ولأن الدراسات

الجادة نادرة مثل الجندي المخروم! فقد تفاضوا عن القيمة في سبيل السرعة من جهة ، ومراعاة لضائلة البند المالي من جهة أخرى ! تفاضوا إذن ولسان حالهم يقول (ياعم دول أدباء أقاليم) . هكذا تكون اللوبي ، وهكذا راحت الهيئة تغذية . فما من شهر من شهور الله إلا وهناك مؤتمر أو مهرجان أو ندوة أو محاضرة أو ماشيت من أسماء . وهو ماجعل الواحد من هؤلاء إذا ما شرق عليه الصبح ، وغسل وجهه ، نظر في المرأة مبتسمًا وقال (ياترى هانكتب إيه عن مين النهاردة)

وهكذا أصبح من الممكن ، إذا ذهبت إلى موقف أحد حلمى أو الترجمان أو عبود ، أن تلتقي بمصادفة (ضرورية) باكثر من واحد من هؤلاء ، مبهرًا أو مقبلاً أو مشرقاً إلى سيناء .

ستتبادل معهم التحية ، مثلـى ، فهم أصدقاء ، سيقول لك أحدهم : لقد ضغطوا علىـى . وسيحاول أن يبدو وكأنـه شهيد الواجب . ستشعر بأنـهم منكسرـون وأنـهم كانوا يفضلـون لا يراهم أحد ، وستقول في نفسـك (اللهم لا تجعلـنا من قطاعـي الأرزاق) . لقد جاءـتهم الدعـوة إذن ، وهم لا يرـفـضـون أبداً ، علىـ العـكس ، يـشعـرونـ بالـإـهـانـةـ أوـ الغـبـنـ إنـ تـجـاهـلـهمـ أحدـ ، وـلـهـ طـرـقـ فيـ تـذـكـيرـ المسـئـولـينـ بهـمـ لـيـسـ أـهـمـهاـ الحـجـ إلىـهـ مـرـةـ أوـ مـرـتـينـ أـسـبـوعـيـاـ فيـ مـقـرـ الهـيـةـ بالـقـصـرـ العـيـنىـ !!

جاءـتهمـ الدـعـوةـ إذـنـ ، وـلـانـ الـوقـتـ ضـيقـ جـداـ ، بـيـنـ سـفـرـةـ وـسـفـرـةـ ، فـهـمـ مضـطـرـونـ لـلـقـاءـ نـظـرةـ فـيـ الـمـيـكـروـبـاـصـ أوـ الـقطـارـ ، عـلـىـ الـكـتـابـ الـذـىـ سـيـنـاقـشـونـ ، وـلـأـنـهـ أـكـادـيـعـيـونـ (مـنـ بـنـوـعـ الـثـلـاثـ وـرـقـاتـ) فـهـمـ يـجـدـونـ دـائـماـ عـبـارـةـ مـاـ أـمـفـاتـحـاـ مـاـ ، فـاـنـ لـمـ يـجـدـواـ نـاقـشـواـ الـغـلـافـ !! الـهـمـ . سـيـجـدـونـ دـائـماـ مـاـ يـفـرـزـونـ حـوـلـهـ لـعـابـهـ صـانـعـيـنـ لـلـؤـلـؤـةـ مـزـيـفـةـ ، يـقـدـمـونـهاـ بـحـنـكـةـ الـجـواـهـرـجـيـ ، عـلـىـ قـطـيـفـةـ مـنـ الـمـصـطـلـحـاتـ ، مـدـشـنـيـنـ فـيـ جـيـاتـنـاـ مـصـدـاقـيـةـ جـديـدةـ هـىـ مـصـدـاقـيـةـ الـجـهلـ .

وبالـطـبعـ ، وـمـرـاعـةـ لـاسـتـكـمالـ الـلـوـبـيـ ، بـخـلـقـ الـحـائـطـ الـرـابـعـ فـيـ هـذـاـ المـسـرـحـ العـبـشـىـ ، سـتـكـونـ الـكـلـمـاتـ طـبـيـطـةـ عـلـىـ نـرجـسـيـةـ الـكـاتـبـ الإـقـلـيمـيـ الـغـلـبـانـ . طـبـيـعـاـ . فـمـاـ الـذـىـ سـيـجـنـيـهـ نـقـادـ التـراـحـيلـ إـنـاـ مـاـ تـرـكـواـ وـرـاءـهـ عـدـاـواـتـ !! ، إـنـهـمـ أـذـكـىـ مـنـ هـذـاـ لـأـنـهـ يـرـاعـونـ حـرـمـةـ الـدـعـوةـ الـقـادـمـةـ ، بلـ وـرـبـاـ يـتـفـقـونـ عـلـيـهاـ وـهـمـ يـوـدـعـونـ وـدـاعـاـ حـارـاـ عـلـىـ رـصـيفـ الـقطـارـ .

هـكـذاـ يـمـكـنـ لـنـقـادـ التـراـحـيلـ أـنـ يـقـضـواـ ثـلـاثـةـ أـشـهـرـ مـنـ الـعـامـ فـيـ فـنـادـقـ (مـنـجـمـةـ) أـكـلـيـنـ شـارـبـيـنـ مـسـرـورـيـنـ بـمـنـافـقـةـ الـكـتـابـ ، مـتـحـرـكـيـنـ بـيـنـهـمـ كـنـجـومـ

السينما !! وهو ضعف إنساني تتكرم الهيئة بدفع فاتورته و مكافأة النقاد عليه . ماعلينا !! المهم أنه في نهاية العام سيجد الواحد من هؤلاء أكداً من الأوراق التي انفجرت عليها قناني الخبر ، فيأخذ في تلقيق هذا مع ذاك ، مانعاً كتاباً . ومرة أخرى ستتكرم الهيئة ، صانعة اللوبى ، بطبعها . فيتمكن الناقد من الترقى بها قى كلية الإقليمية أملأ فى الصعود إلى شريحة أكبر . الغريب أنها كتب و دراسات لاتقاد تعرف واحداً من كرست لهم بافعل التفضيل !!

سرت اشاعة ، لاتخلو من الدلالة ، عن أن بعض نقاد التراحل ، كان ينافق ، فى نفس الوقت ، كتاباً فى المانيا ويلقى أشعاراً فى المنصورة !! وهى واحدة من كرامات النقاد الجدد ، بل إن واحداً من الشعراء أضحكنا كثيراً عندما راح ، أمام ناقد من هؤلاء ، يخترع أسماء كتب مؤلفين وهميين ، فما كان من الناقد إلا أن راح ينافق صاحبنا بمحامى مدعياً إنه قرأ كل أعمال المؤلف ، وأنه مجرى وليس ألمانيا ، وأن له ، والكلام لناقد التراحل ، تحفظات عليه !! . سبحان الله

الغريب أن واحداً من العاملين بالهيئة قال لي : هل تصدق أن هؤلاء المعتمدين من الهيئة لايزيدون عن عشرة . وأن بعضهم يحمل درجة الكثرة وبعضهم ينتحلها ، بعضهم ممسوس بالكتابة وبعضهم مسكون بالكتابة . ثم ضحك وقال : ولكن كلهم تحت الطلب . تماماً كعبارات تكرييم الموتى !!

ملاحظات لأبد منها:

- ١- اعتذر للسادة عمال التراحل
- ٢- الجادون لم يردوا فى هذا المقال.
- ٣- للصحفيين فى هذا اللوبى حديث آخر .
- ٤- المروى عليهم هنا هم لوبى مضاد تحت التأسيس .
- ٥- القارئ الضمنى على أبو شادى .

دریدا .. والتفسیکیة المستحیلة

عادل العرائی

جاك دریدا !! .. هو ذلك الفیلسوف الفرنسي المعاصر الذى يعتبره فى الغرب رائدًا للتفکیکیة ، والذى كان ضيفاً على مصر فى الفترة من ١٤ - ١٢ فبراير ، لقاء بعض المحاضرات فى المجلس الأعلى للثقافة والمركز الثقافى الفرنسي . ذلك الذى قذفوه بكثير من الاتهامات ، فالبعض يراه ميتافيزيقياً يبدأ من الميتافيزيقيا وينتهي عندها ، والبعض يراه غارقاً في العدم ، والأخر يراه أصولياً يهودياً ، اتهامات كثيرة وصلت إلى حداته التفکیکیة الدریدية بانتها ليست منهجية.

لكنك حينما تقف أمام هذا الرجل تجد نفسك أمام إنسان شديد الحساسية وكأنه شاعر ، صوفى من نوع خاص ، رجل حينما تسترق السمع إلى فكره تجد أنه إنسان لا يؤمن إلا بالمستحيل لأنه يرفض الإيمان بالمكان ، فهو يدعو إلى تفكيك كل الافتراضات القائمة والنظر إليها من جديد ، في محاولة لتحليلها وإعادة التفكير في مفهوم الإنسانية وشكلها بوجه عام.

ربما يبدأ هذا الرجل من جنة الله ، تلك الجنة التي كان الإنسان فيها بلا عمل وبلا خطيئة ، إلى أن تجسدت الخطيئة كحدث وليس كفعل أو عمل ، مؤكداً على ذلك حين يقول في محاضراته .. « الخطيئة الأصلية قد انخلت العمل إلى العالم ، كذلك تعلن نهاية العمل عن المحصلة النهائية للتکنیر عن

أطلق عليه جامعة بلا شروط صاحبة الحق المبدئي في قول كل شيء بما في ذلك ما يدخل في باب الخيال أو التجريب في مجال المعرفة، والحق المبدئي في قوله على الملا ، أى في نشره . إذن هو يدعو إلى إقامة جامعة يرى أنها لا توجد حتى في أوروبا ، وكانت يرفض الجامعة الحديثة التي بدأت في التكوين هناك منذ قرنين من الزمان ، والتي يجب عليها أن تتمتع بحرية غير مشروطة ولا تخضع لسلطة ما ، فهو يرى أن الجامعة الحديثة في أوروبا رغم تطورها الهائل والدور الكبير الذي تقوم به وتأديبه ، إلا أنها تخضع للعديد من السلطات التي تحد من حريتها ، حتى وإن تمثل تلك السلطة في قوى رأس المال والشركات متعددة الجنسيات التي توجه البحث العلمي لأغراض بعينها . ويعمل دريدا على اختياره للجامعة غير المشروطة بأن الجامعة تتميز من وجهة نظره عن أي مؤسسة للبحث - تكون في خدمة غايات ومصالح اقتصادية من كل نوع - في أنها تتمتع باستقلال من حيث المبدأ لا يناظره استقلال تلك المؤسسات ، ويرى دريدا كما يؤكد في محاضرته أن عدم المشروطية يتمثل في العلوم الإنسانية والأدب واللغة والقانون والفلسفة والنقد ، بل ويتجاوز الفلسفة النقدية ليصبح تفكيكياً ، حيث لا يتعلق الأمر سوى بإعادة التفكير في مفهوم الإنسانية وشكلها بوجه عام .

هكذا تبدو تفكيرية دريدا المستحيلة وكأنها تفكيرية لا تؤمن بفعل العنصر بقدر ما تؤمن بالعلاقة بين العناصر ، علاقة التناسب القائمة بالحركة دائماً سواء أكانت بالطرد أم بالعكس ، تفكيرية لا تؤمن بالثوابت الموضوعية إجرانياً من أجل الرصد كما في العلوم الطبيعية والرياضية ، لكنها تفكيرية مستحيلة تؤمن بالحركة المستمرة .

وأخيراً .. هل يستطيع العقل المشروط عمله بتثبيت الأشياء لرصدها ، أن يتتطور ويمتلك القوى التي تمكنه من تحليل ورصد الأشياء ومحاولة فهمها في حركتها ؟ ربما لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال ، حتى دريدا نفسه ، لأن الإجابة ربما لا يستطيعها إلا العقل وربما شيئاً آخر غير العقل ، فهل يتطور العقل الإنساني حتى يجيب عن هذا السؤال بوضوح ويصبح تفكيرياً ؟ .. ربما !!!.

الافتراضات القائمة وإرجاء المعنى المتحرك دائمًا.

ولعلك أمام تفكيرية دريدا المستحيلة تجد نفسك محاصراً بوجود شبهة صرفية أو وجودية أو شبهة نسبية أينشتاين مما اضطر البعض إلى توجيهه الأسئلة إليه متهمًا إياه بوجود هذه الشبهات في فكره ، لكن دريدا يجيب حينما يتهم بوجود شبهة شبح الصوفية في فكره فيقول: كلنا مسكون بشبح وكل شبحه ولكن ليس صوفياً بالمعنى المتعارف عليه ولو كان صوفياً لكان صوفياً يهودياً، وهنا يأخذنا كلام دريدا إلى جماعة اليهود-الموران- التي انتشرت في الأندلس ورفضت التسورة وكذلك لم تؤمن بالمسيحية الكاثوليكية- هؤلاء الذين يعتبرهم البعض أول العلمانيين - لعرفنا أنهم يتوازون مع ما يقوله دريدا من حيث رفضهم للشرط المتمثل في النص التوراتي ومحاولة إعادة التفكير فيه بلا شروط ولا سلطة ، وإذا تعمقنا أكثر لوحظنا أن اليهود اعتمدوا دائمًا على إعادة التفكير وتحليل النص التوراتي فيما يشبه التأويل ، وخلقوا بذلك نصاً خاصاً أصبح هو المقدس عندهم ، ذلك النص الذي يصنعه أحبارهم باستمرار ، وأن صوفية اليهود تبدأ بإذابة الله في الوجود سعيًا وراء فردوس أرضى ، هنا نفهم أن إجابة دريدا لا تقر بأنّه صوفي أو يهودي أو حتى مسيحي.. إلخ ، إنّه إلا تفكيركي يؤمن بالمستحيل ، لأنّها تفكيرية من وجهة نظره غير مشروطة ولا تسعى حتى إلى فردوس أرضى.

ربما أيضًا نحس بشبهة الوجودية في تفكيرية دريدا ، وربما لو وجه إليه هذا السؤال لضحك وأجاب بالنفي .. مع أن دريدا في تفكيريته لا تعنى مسألة وجود الله أو عدم وجوده شيئاً ، والإيمان عنده كما في الوجودية يتمثل في حقيقة الوجود ، لكن الوجود في الفلسفة الوجودية يمثل سلطة قهورية تحكم على الإنسان بالحرية ، وهي سلطة لا توجد في تفكيرية دريدا غير المشروطة .
· حول التفكيرية والعلوم الإنسانية في الغد نجد دريدا يدعو إلى إقامة جامعة غير مشروطة بآية سلطة ، ونجد أنه يقول في محاضرته «هذا هو إذن ما

أطلق عليه جامعة بلا شروط صاحبة الحق المبدئي في قول كل شيء بما في ذلك ما يدخل في باب الخيال أو التجريب في مجال المعرفة ، والحق المبدئي في قوله على الملا . أى في نشره . إذن هو يدعو إلى إقامة جامعة برأي أنها لا توجد حتى في أوروبا ، وكأنه يرفض الجامعة الحديثة التي بدأت في التكوين هناك منذ قرنين من الزمان ، والتي يجب عليها أن تتمتع بحرية غير مشروطة ولا تخضع لسلطة ما . فهو يرى أن الجامعة الحديثة في أوروبا رغم تطورها البشري والدور الكبير الذي تقوم به وتأديبه ، إلا أنها تخضع للعديد من السلطات التي تحد من حريتها ، حتى وإن تمثل تلك السلطة في قوى رأس المال والشركات متعددة الجنسيات التي توجه البحث العلمي لأغراض بعينها . ويعمل دريدا على اختياره للجامعة غير المشروطة بأن الجامعة تتميز من وجهة نظره عن أي مؤسسة للبحث - تكون في خدمة غaiات ومصالح اقتصادية من كل نوع - في أنها تتمتع باستقلال من حيث المبدأ لا يناظره استقلال تلك المؤسسات ، ويرى دريدا كما يؤكد في محاضرته أن عدم المشروطية يتمثل في العلوم الإنسانية والأدب واللغة والقانون والفلسفة والنقد . بل ويتجاوز الفلسفة النقدية ليصبح تفكيكياً ، حيث لا يتعلق الأمر سوى بإعادة التفكير في مفهوم الإنسانية وشكلها بوجه عام .

هكذا تبدو تفكيرية دريدا المستحيلة وكأنها تفكيرية لا تؤمن بفعل العنصر بقدر ما تؤمن بالعلاقة بين العناصر ، علاقة التناسب القائمة بالحركة دائماً سواء أكانت بالطرد أم بالعكس ، تفكيرية لا تؤمن بالثوابت الموضوعية إجرانياً من أجل الرصد كما في العلوم الطبيعية والرياضية ، لكنها تفكيرية مستحيلة تؤمن بالحركة المستمرة .

وأخيراً .. هل يستطيع العقل المشروط عمله بتثبيت الأشياء لرصدها ، أن يتطور ويمتلك القوى التي تمكنه من تحليل ورصد الأشياء ومحاولة فهمها في حركتها ؟ ربما لا يستطيع أحد أن يجيب عن هذا السؤال ، حتى دريدا نفسه ، لأن الإجابة ربما لا يستطيعها إلا العقل وربما شيء آخر غير العقل ، فهل يتتطور العقل الإنساني حتى يجيب عن هذا السؤال بوضوح ويصبح تفكيرياً ؟ .. ربما !! .

أقذفهم بقصيدة نثر

محمود خير الله

لما زا أكتب قصيدة نثر ٤

أنا أنا فاكتب قصيدة نثر ، ليس لأننى أفترض سبباً شخصياً وحيداً يدركنى للكتابة ، بل أحاول أن التمس فى نفسى قدرة ماعلى كشف شئ مافى هذا العالم ، أحياناً أظلنَّ أنتَ أكتب شعراً كى لا انتحر ، وغالباً ما أجند نفسى مدفوعاً لكتابه همومى ، التى أعبر فيها عن خبرة مؤللة أذننى كثيراً باختفائها عن الناس ، نعم ، الجروح التى نكبتها طوال سنوات تستطيع أن تهلك أعمارنا لو لم تفضحها وتحكها أمام الآخرين ، أنا مثلاً تعلقت بفتاة في الجامعة كانت من مدينة كبيرة وأسرة ميسورة وطالبة في قسم اللغة الفرنسية ، وأنا كنت من مدينة صغيرة وأسرة متواسطة الحال وطالباً كنت في قسم اللغة العربية ، تعلقت بها ولم تتعلق بي ، صارحتها بشاعرى ولم تصارحنى بغير الرفض ، الذى هذا المشهد كله ، لكننى لم أتخلص منه إلا حين كتبته شعراً ، متألماً من وضعىي الأقل ، هكذا تنتخبنا الأحزان لنفسح بها منظومة مزيفة تحكم العالم ، ولأننا مهما كنا صغاراً جزء من العالم فعلينا على الأقل أن نقوم بدور فيه ، نعم لدى ما يكفى من الحزن والأسى لأنقض كل أسباب ضياع الجماهير التي لا تعرفنى ولا تحب أن تعرف شيئاً عن فقرها المدقع وخيباتها الكبيرة وهوانها على الجميع ، المؤسسات والجمعيات والأنظمة الحاكمة وأصحاب النفوذ والسلطة ، وحتى منظمات حقوق الإنسان ، الجميع يسهم في إخفاء الحقيقة وتزييفها ، فيصاپ للجمهور بالفقر والخيبة ولا يعرف سبباً لذلك ، وعلى أنا وحدى أن أغنى الجميع بجهلهم وغيابهم وفقرهم الشديد.

حينما كنت صغيراً ، كان أبي مدرس اللغة العربية يخطب الجمعة في مسجد ما ، نركب القطار سوياً إلى قرية صفيرة ، ومن شرفة القطار المتهالكة كنت أرى دائماً ، بالكونات نظيفة ، وربما كان طفل صغير يقف في واحدة منها ، يلوح للقطار ولاقرائه في الشارع ، وإن منزلنا الأرضي لا يسمح بوجود بالكونة مرتفعة ، أحببت أن تكون لي بالكونة أقدم نفسي فيها من أعلى ، وأقيمت فاصلاً صغيراً بيضى وبين العابرين في الشارع ، وكى لاتوقظنى أصوات الباعة الجانلين الذين ينهضون مبكراً ليقدموا للناس بضاعتهم وسباهم وسباهم المحفوف بالمشاكل ، كان احتياجاً بسيطاً لم أحقه إلا بعد عشرين عاماً ، حينما كتبت قصيدة عن بالكونة صفيرة أستطيع فيها أن أغسل أحزاني مع مكاتب العمل اليومي المجهد.

الأمنيات إذن ، تحققت أو ظلت معلقة ، بعض مما نكتب ، ومازال الفن يحمل احتمالات كثيرة لكتابه مايرغب حدوثه ، ربما يدفع ذلك لوجود عالم بديل ، بطريقة ما ثمة عالم بديل ، أحياناً نحقق في صياغة عوالم بديلة ، ويأخذ الإخفاق شكل كراهية للعالم الذي أعيش فيه ، الكراهية التي أستطيع بها أن أتحقق على شخصية ما ، فحينما تجيء الأزمة المالية لدارى الصغيرة ، ويصير الجنie الوحيد هو كل مأملك ، لابد أن يدفعنى ذلك لتأمل فكرة « الحقد » هذه الفكرة التي تم احتقارها باعتبارها تمثل تهديداً للطبقة الفنية من الطبقات الفقيرة ، لا ، هذا الحقد الذي أكنه لعالم ملىء بالفوغائية والفوضى جدير بأن يمجد ويعاد الاعتبار له والتساؤل حوله كمنظومة من المشاعر تتالق في سياق الفروق الطبقية الضخمة ، وليس الحقد على شخصية يعيتها مأقصد ، بل أقصد الأحقاد الطبقية التي حرم منها فقراء هذا العصر ، بسبب الآلة الإعلامية الجبارية التي تعمل دون هواة على إطفاء المشاعر النبيلة لأحقاد الفقراء .طبعاً توصلت لفهم جديد حول « الحقد » بعد كتابة قصيدة « الحقد على صلاح حامد » وقتها فقط عرفت أن الجنie المصري النائم وحيداً في بيتي الصغير يمر بمرحلة تضخم ، أوراق عملة تطبع لكن قيمتها في تناقص سريع ، وطبعاً أن يحدث شرخ وأنهيار حاد في « دخل الشهري » الذي يمثل عدة مئات من أوراق العمل المطبوعة ذات التناقص السريع في القيمة ، تدخل في متطلبات المنزل فتهلك بعد أيام ، ويظل السؤال مطروحاً كلغز .

لقد فهمت جزءاً من أزمتي بعد أن كتبت القصيدة منفعلأً بلحظة فقر وتهديد للاستقرار المنشود للأسرة ، فالفن يجذب دائماً لصالح الإدراك ، والحقيقة أن الإدراك لا يتم قبل الانفعال بالأزمة ، فلأنفع ولين فعل مع آخرون

ربما يدركون أزمتهم في إدراكي لازعشي ، وتلك واحدة من أهم أسباب كتابتي للشعر

يكون العالم جميلاً إذا كان لك فم ينطلق ، ويكون أبعلم إذا كان ينطلق شيئاً جميلاً ، ودائماً ما يرتبط الجمال بمفهوم خاص في كل عصر ، وأظن أن ما يفتقده كل عصر هو دائماً مركز الجمال فيه ، والآن ، في الوطن العربي المهزوم ، نفتقد أشياء كثيرة ، يمكن أن تخصها في « الدقة » والشخص الذي ينطلق كلاماً دقيناً - أو يكتبه - يكون محبوباً إذا نطق أو كتب ، لكن الدقة وحدها لا تكفي إلا بمساندة من الوعي ، وفي الوعي تكون الأمور واضحة تماماً.

لأعرف لماذا أصبح الوعي بقضايا وإشكالات وكوراث المجتمع ضد فكرة الإبداع ، وصار الشعراء يهربون من استخدام فكرة ما لقراءة الواقع ، كان ذلك مقبولاً في الجاهلية مثلاً ، أما الآن فصار أضحوكة نصداً لها للأجيال القادمة لتنفس ، لأنني لأعرف لماذا يريد البعض إفساد جيل قادم.

سأتابع مسيرة الشعر العربي خلال القرن العشرين لأبين للهائمين في سماء « الميتافيزيقا الشعرية » أن الأمر ليس كما يتتصورون.

في بداية القرن العشرين حرص الشعراء على أن يكونوا إحيائيين بما يكتبون في بحث الشعر من كبوة « الانحطاط » كانوا أحراراً في تصوّرهم عن الجمال ، لكن بعد وقت قليل لم يعد تصوّرهم كافياً ، وببحث شعراء آخرون عن سبل لكتابية شعر يطور الأداء الاحيائى للرواد الأوائل ، والأوائل هؤلاء جاءوا بإحيائيين لأسباب تتعلق بعصر النهضة وسفريات رفاعة الطهطاوى ومشاهداته ولبيرالية محمد عبد وجمال الدين الأفغاني ، وحينما جاء شعراء الأربعينيات على هذا الإرث الاحيائى طوروه بطريقتهم خرجوا من أسر العمود الشعري ودخلوا في إطار « الشعر الحر » لنتظر للحظتهم تلك التي هدموا فيها ألفاً وثلاثمائة عام من العمود الشعري ، كانت الحرب العالمية قد أسهمت في تغيير خرائط جغرافية وسياسية واجتماعية وقيمية ولغوية أيضاً . وكان على الأدب المكتوب أن يتغير بهذا الزلزال العالمي ، شعراء هذه اللحظة عبروا بقصيدة « الشعر الحر » عن رغبتهم في كسر تقاليد بلية ولم يعد لها أي بهاء أو جلال ، فضلاً عن انكسارهم كأشخاص أمام حروب آلية عنيفة ، لم تسعنهم عقولهم في إدراك كيف يموت الملايين في حرب واحدة ، لقد اختلف العالم ، واختلف الأدب العربي معه ، هل نذكر فقط أن أول رواية كتبها نجيب محفوظ بعد المرحلة التاريخية من رواياته كانت في عام ١٩٤٥ « القاهرة الجديدة وهي السنة التي انتهت فيها العمليات العسكرية لتبدأ آثار الحرب



في تدمير النفوس ، إن العالم حينما تتغير خرائطه السياسية تتغير طرق تعبيره ، وهذا ماحدث بشكل ما في تسعينيات هذا القرن ، وكلنا شاهد بأم رأسه انكسارات حكومية وشعبية وفضائح وخروقات وحكاماً خونة ، كما لم يحدث في أى وقت ، فضلاً عن الجحيم الذي جمع بين (الهای تكنولوجى والقطب الواحد للعالم) إدارة نظام الكون .

لقد تغيرت طرائق التعبير في السينما والمسرح والشعر وفي كل شيء ، ويظل السؤال : لماذا قصيدة النثر تحديداً ، لأن النثر هو أعلى مراحل التخلص عن التقليد البالية والانجاز الشكلي الذي لا ينتمي إلى خبرة إنسانية حقيقية ، لقد هزمنا بعبارات موزونة وسحقنا بكلمات مقفاة وتم تدجيننا كامة للخطب .

في السياسة مثلاً ، كانت فلسطين حلماً عربياً نبيلاً ، الآن ، هناك مساومات وبطء وتسوييف وتراجع وـ " مط " بجوار الإهلاك والتجميع والصعق والقتل بقنابل مطاطية ، إننى أعتبر أن انتفاضة الحجارة في منتصف الثمانينيات معادل موضوعي وواقعي لقصيدة النثر ، وبعد هزيمة القيادة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لجأ الصغار إلى قذف العدو بآيساط الأساليب وكم تكون الأساليب البسيطة موجعة أكثر ومؤلمة أكثر وأكثر . وقصيدة النثر كذلك بسيطة وموجعة ولا تملك ترفاً لتزخرف ، تملك حدأً مستوئاً لتجريح ولتفصيع ما يحدث في هذا العالم ببساطة ودقة ، وهذا مايفتقده هذا الواقع الان .

الديوان الصغير

لا أكادأشائ
لا أكادأوقن

(مختارات من قصيدة التشرهى تراثنا القديم والحديث)



اختيار وتقديم :

حلمى سالم

يحيى النص الممحوب

هذه مختارات مما نسميه «قصيدة النثر في التراث القديم والحديث»، نقدمها للقراء، وللحبى الأدب والشعر، ساعين في ذلك إلى أن يعرف القراء والنقاد أن لقصيدة النثر العربية المعاصرة جذوراً - أو بذوراً - في تراثنا القديم كله، والعربى منه خاصة، وأنها ليست غربية الجذور، أو منبتة عن أصولنا الأصيلة، كما يشيع بعض خصوم التجديد والمغامرة، من رعاة التقليد والتخلّس.

ولسنا بذلك نقع في مزلق إثبات شرعية الحاضر بالتفتيش عن نظير له في الماضي أو شبيه، كما يتخوف المتخوفون، بل نحاول أن نتلمس صور «التواصل» في تاريخنا الأدبي القديم حتى لحظتنا الراهنة، وأن نرصد كيفيات «التحول» و«التطور»، من السابق إلى اللاحق.

وقد يقول قائل: «ولكن كثيراً من هذه القطع المختارة لم تكتب حين كتبت - بوصفها شعراً، بل كتبت باعتبارها نثراً أو حكمة أو فلسفة أو أمثلة». وردنا على ذلك: نعم، إن كثيراً منها لم يكتب باعتباره شعراً - كنوع أدبي - لكنه في جوهره العميق شعر من جميل الشعر. ومن حقنا - نحن المعاصرین - أن نعيد تصنيف بعض تراثنا وتبويبه على ضوئنا المعاصر الحديث.

التراث ملكنا جميعاً، والمبدعون هم الورثة الأولون له، ومثلاً ما أن من حقنا - أو واجبنا - أن نبعث أو نحيي الجوانب الفكرية المنيرة منه دون الجوانب المظلمة، فكذلك من حقنا - أو واجبنا - أن نغير «فهرسة» بعض نصوصه، ونعيد «تسكيتها» في موضعها الصحيح، وأن نرد الاعتبار إلى بعض ما زحّزته الأيدى السلفية إلى «الهامش»، لكي يظل «المتن» صنيعاً لهذه الأيدى، وصانعاً.

كما أننا نريد أن نؤكد للجميع - قراء ونقاداً ومحبى أدب - أن خلو النص من الوزن الخليل ليس مانعاً للشعرية، لأن هذه الشعرية يمكن أن تتحقق - كما سترهن لنا النصوص المختارة - بعيداً عن الوزن الخليلي، وإن لم يكن بعيداً عن الموسيقى: الخاصة، الخافتة، المضمرة. هذه - إذن - مجرد نماذج مختارة اختياراً تمثيلياً، ليست كل النماذج بالقطع، وليس أجمل النماذج بالحصر، فتراثنا مكتوز بشروة هائلة من ذلك الشعار «الممحوب» الذي لم يدرجه مؤرخو الأدب القديم.

(والتقليديون من مؤرخيه المحدثين) في عداد الشعر ، لأن «قفص»
الشعر عندهم لم يكن يتسع لمثل هذه الطيور الحارة الحرة.

وقد عدنا ، في اختيارنا ، إلا نقتصر على تراث اللغة العربية وحدها.
لأننا ننطلق من مفهوم للتراث هو أوسع من محاصರته في التراث
«العربي الإسلامي» وحده ، فضلاً عن أننا نريد أن نشير ، ضمنياً إلى
أن تراثنا القديم كله (بألوانه المختلفة) «يتناص» مع بعضه بعضًا .

ولذلك فقد مددنا نظرتنا في الاختيارات - إلى العقود الثلاثة
الأولى من القرن العشرين ، لكن نؤكد سريان الظاهره من التراث
البعيد إلى التراث القريب .

وسوف يلاحظ القارئ أننا لم نسرف في اختيار نماذج من الشعر
الصوفي الإسلامي ، لأن هذه النماذج صارت متاحة إلى حد بعيد ، بعد
أن كشف عنها الكاشفون ، وأن هناك مناطق أخرى - غير المنطفة
الصدفية - هي أقدر بالكشف والتعرف والتدوين ، إذ هي مناطق أهلة
بالجمال المستور ، مسكونة بالدهش غير المعلن عنه .

وغنى عن الاستدراك أن نؤكد أن هذه الجنور - أو الجنور - المبكرة ،
ليست بالغة الكمال ولاتامة النضج ، بالعيار الذي نقيم به قصيدة
النشر في صورتها المتطرفة الراهنة .

هذه بذور : عليها ما على الجنور من «بدائية» ، ولها ما للجنور من
ـ بدءـ .

والحق أن ما نقدمه ، هنا ، ليس سوى غيض من فيض . إن هو إلا
إشارة إلى تلك الكنوز الثمينة ، التي ظلت مغمورة عهودا طويلا ،
لفرض في نفس «يعاقبة الشعر» الذين يريدون أن يجعلوا خصائص
الشعر شروطا مقدسة منزلة ، لا تتغير بتغير الأزمان والعصور
والبشر والشعراء ، كما ينبغي أن يكون فهم الأمم الحية للشعر الحي .

ألم يعلمنا جلال الدين الرومي أن : «الصورة تقفز من المعنى كالأسد
من الغابة»؟

إذن : ادخلوا معنا هذه الحديقة الفواحة .

ح.س

قس بن ساعدة الإيادى

أين الناس
اسمعوا وعوا
انظروا واذكروا
من عاش مات، ومن مات فات،
وكل ما هو أنت أنت
ليل داجٍ
ونهار ساجٍ
وسماء ذات أبراجٍ
ألا إنَّ أبلغ العظات ، السير في الفلوات
والنظر إلى محلَّ الأموات
إن في السماء لخبرًا
 وإن في الأرض لعبرًا
مالى أرى الناس يذهبون ، فلا يرجعون ،
أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟
يا معاشر إيادٍ
أين الآباء والأجداد .
وأين المريض والعوارد
وأين الفراعنة الشدّاد .



سطيع الكاهن

رأيت حممة
خرجت من ظلمة،
فوقعت بأرض تهمة
فناكلت منها كل ذات جمجمة.

أحلف بما بين المرتين من حتش
لتهبطن أرضكم الحبيش
فليملكون ما بين أبين إلى جرش.

ابن عربى العين وجودى

فحصلت فى هذا الإسراء معانى الأسماء كلها ، فرأيتها ترجع إلى
معنى واحد وعين واحدة ، فكان ذلك المعنى مشهودى ، وتلك العين
وجودى . فما كانت رحلتى إلا فى ، دلالتى إلا على .

ابن عربى جنب النص

إن اتبعت النص ، أحبيت الموتى وأبرأت الأكمه والأبرص . جنب
النص وعليك بالبحث والفحص .
« الإسرا إلى المقام الأسى »

التوحيدى التقى ملجم

هذا رمز وراءه رمز
وإشارة فوقها إشارة
وعبارة حولها عبارة
ولكن التقى ملجم
ولا بد من بعض السكوت
كما أنه لا بد من بعض القول .

(الامتناع والمؤانسة) .

جلال الدين الرومي هذه النار

ان الهواء الذى أنفخه فى هذا النار
هونار
وليس هواء وريحاً
كل من ليس له هذه النار
فليمت

الجاحظ الشك واليقين

أعرف مواضع الشك ، وحالاتها الموجبة له ،
لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ،
وتعلم الشك فى المشكوك فيه تعلم ، فلو لم يكن
في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج
إليه .

ثم أعلم أن الشك فى طبقات عند جميعهم .
ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات فى القوة والضعف .
ولما قال ابن الجهم للمكى : أنا لا أكاد أشك ! قال المكى : وأنا لا أكاد
أوقن ! ففخر عليه
المكى بالشك فى مواضع الشك ، كما فخر عليه ابن الجهم باليقين فى
مواضع اليقين .



قال لى قد جاء وقتى وأن لى أن أكشف عن وجهى وأنظر سبhatى
 ويحصل نورى بالآفنيه وما وراءها وتطلع على العيون والقلوب وترى
 عدوى يحبنى وترى أوليائى يحكمون فأرفع لهم العروش ، ويرسلون
 النار فلا ترجع ، وأعمر بيوتى الخراب وتتزين بالزينة الحق وترى
 قسطى كيف ينفى ما سواه وأجمع الناس على اليسر فلا يفترقون
 ولا يذلون ، فاستخرج كنزى وتحقق ما أحافتكم به من خبرى وعدتى
 وقرب طلوعى ، فإنى سوف أطلع وتجتمع حولى النجوم وأجمع بين
 الشمس والقمر ، وأدخل فى كل بيت ويسلمون على وأسلم عليهم ،
 وذلك بأن لى المشيئة وبإذنى تقوم الساعة ، وأنا العزيز الرحيم .

السهر وردي تذكرة فاضطربت

يا منجي الهلكي ويا غياث من استغاث
إن ذاتا هبطتْ فاغتربتْ
وتذكرة فاضطربتْ
وسارعت فمعنعتْ
فهل إلى الوصول من سبيلٍ
أيدنا بالنور
وثبتنا على النور
واحشرنا إلى النور
ظلمتنا أنفسنا
ولست على الفيض بضئين.

الحلاج يمرح بالدلال

أفهم الخلاق لا تتعلق بالحقيقة
والحقيقة لا تتعلق بالخليقة
الخواطر علامق ، وعلاقة الخلائق لا تصل إلى الحقائق.
و والإدراك إلى علم الحقيقة صعب ، فكيف إلى حقيقة الحقيقة.

الحق وراء الحقيقة . والحقيقة دون الحق .
 الفراش يطير حول المصباح إلى الصباح ، ويعود إلى الأشكال
 فيخبرهم عن الحال ، بألطف المقال ،
 ثم يحرث بالدلائل ، طمعاً في الوصول إلى الكمال .
 ضوء المصباح علم الحقيقة ، وحرارته حقيقة الحقيقة .
 والوصول إليه حق الحقيقة .

«كتاب الطواحين»

البسطامي وقت

كنت قاعداً يوماً من الأيام
 فخطر لى أنى شيخ الوقت

البسطامي المعرفة

قيل له: بأى شئ وجدت هذه المعرفة؟
 فقال: ببطن جائع وبدن عارٍ



الراحة

جبران خليل جبران

اخلعوا نسيج الكتان عن جسدي وكفنوني بأوراق الفل والزنبق.
انتشلوا بقابي من تابوت العاج ومددوها على وسائد من زهر
البرتقال والليمون.

لا تندبوني يا بني أمي، بل انشدوا أغنية الشباب والغبطة.
لا تذرفى الدموع يا ابنة الحقول . بل ترنمى بموشحات أيام الحصاد
والعصير.

لا تغمروا صدرى بالتأوه والتنهد . بل ارسموا عليه بآصابعكم رمز
المحبة ووسم الفرح.

لا تزعجوا راحة الآثير بالتعزيم والتکهين ، بل دعوا قلوبكم تتهلل
معى بتسبیحة البقاء والخلود.

لا تلبسو السدار حزنا على، بل ارتدوا البياض فرحا معى.





أمين الريhani إلى جبران

على شاطئ البحر الأبيض
بين مصب النهر وجبيل
رأيت نسوةً ثلاثة يتطعن إلى المشرق
الشمسُ كالجلنار
تنبثق من ثلج يكمل الجبل
امرأة في ثوب أسود
وقد قبل التهم فمها الباسم
امرأة في جلباب أبيض
نطق الحنان في عينها الدامعة
امرأة ترفل بالأرجوان
في صدرها للشهوات نار تتأجج
ثلاث نسوةٍ يندبن تموز

يسألن الفجر هل عاد يا ترى؟
هل عاد؟



مصطفى صادق الرافعى الطفل

لائزال جنة مع الطفل
حتى إذا كبر قيل له كما قيل لأدم:

اهبط منها.
أكل ادم من الشجرة
ولاشى يضيع فى الكون:
فأين الحلاوة التى ذاقها فى الجنة؟
هي من أفواه الأطفال.

أوراق الورد

خليل مطران
أسف

أطلق عبراتك من حكم الوزن وقيد القافية
وتصعد رفراتك غير مقطعةعروضاً ولامحبوبة في نظام
قل وقد نظرت إلى الموت وهو قاتل عامد
وماتوحبيه إليك النفس لدى رؤية إثمه الرائع
لاعتب على الحمام، وهو الظلمة والحياة النور
هو الأصل الأزلى الأبدي والنور حادث زائل
فإذا ازهر شارق في دجنة فهو يكافحها وينافيها
إلى أن ينقضي سببه فيتضاءل ثم يتلاشى فيها



حسين عفيف الغسق

خذك وردى وقلبى جمرة
كلاهما شبت به النار وأما حلى حريقها!
وأن نفني فى اللهب المقدس فى ساعة نشوة!
ياشمعتى اتنى الفراشة برفيفى وهج ، فهيا نحترق

*

إن يكونوا أبعدوك فقلبى نزح معك
سليه وأنت هناك أما زال هاهنا؟
أم كظللك يتبعك وأبقى وحدى هنا؟
وشانج ربيط بيننا لن تذعن للنوى.

*

لاتصار حونى بعذاب القبر فتخيفونى من الموت
أو تهددونى بجهنم فتزيدوا محنتى
آفارق يصاحب لذع المنون ، ورعب مما يعده؟
كفانى ما ذررت فى صحوى من دموع ، فلاتغمضوا
على الفزع عينى
اخروا المقدر عنى لأقضى فى سلام ، ويومئذ قد يغفر لى ربى.

محمد منير رمزى التماثيل

صنعناها كآلة حتى بليت زيادينا
وفى أمل صقلناها حتى بليت ماقيينا
ومن خوف رفعناها على أكتافنا
مق晦ين هاماتها فى قلب السماء



هاهى

إنها لم تذهب بعيداً عن أنامنا
إنا نقبلها ونصفعها
نحتضنها ونركلها
تلك التماثيل التي لأنفاس لها
إنا نخطمها.

تجليات اللحظة الشعرية الراهنة (مراجعة أولية لمشهد الحداثة)

د/ وليد منير

اللحظة الشعرية الراهنة لحظة ملتبسة .. هذه حقيقة تدعمها جميع الوقائع المشهودة عبر عقد كامل من السنوات. أو أكثر.

هل هي لحظة مخاصم أم هي لحظة ترد؟ هل هي لحظة تحولات أم هي لحظة انهيار؟ سوف تتسع مساحة الاختلاف في الاجابة عن هذا السؤال . ولكن لا بدأ بالاختلاف الحاد فلنحدد ، أولاً ، مظاهر الالتباس التي تكابدها اللحظة الشعرية الراهنة . وفي رأيي أن أهم هذه المظاهر وأبرزها هي اهتزاز المفهوم المتفق عليه لما هي عليه الشعر ، خلخلة المراجعات الأولى في وسائل التشكيل الشعري . اتساع التداخل والاختلاط بين الأنواع الأدبية بما يجاوز مفهوم التفاعل إلى مفهوم الاندياح ، بروز القصصيات المسبقة لصالح أيديولوجيا الأفكار على حساب تعميق الممارسة الجمالية التي تتميز في ذاتها ، ببراءة نسبية ، تطويق المعرفة النقدية في اتجاهات أكثر برجمانية بحيث أصبح طغيان عنصر التحليل على عنصر التقويم أمراً شائعاً ومتداولاً ، بل وتبسيط عنصر التحليل ذاته ليصبح أقرب إلى التبرير منه إلى الاكتناء العميق ، الخلط بين ظاهرة المثقافة وبذمة التلفيق الثقافي بحيث غداً انتزاع الأفكار النقدية والجمالية من سياقها وتوظيفها في سياقات نقيبة ممارسة «سائدة» ومحببة ، ولا تجد أى اعتراض أو تنفيذ.

تكشف هذه المظاهر الستة ، في اعتقادى ، عن مناط الالتباس في اللحظة الشعرية الراهنة . وهي لحظة شديدة التعقيد والتركيب ، لا بحكم شرائها ، بل

بحكم تراكم تناقضاتها ونشوء تنوعات كثيرة على هذه التناقضات . وبغرم أن الوعي الحديث مولع بالتناقض ، شغوف بالاضطراب ، منحاز إلى القلق والتحول والصيرونة الدائمة ، إلا أن الخطر الحقيقي لا ينبع هنا ، من وجود التناقض . بل ينبع من التربة الاصطناعية التي نبت منها هذا التناقض ، فالشخصية الأولى الذي انبثقت من خلاله التناقضات لم يكن طبيعيا ، ولم يتم بطريقة حيوية ، ولم تفض إليه مقدمات كامنة في خصائص المanax ، ولكنها كان تجربة «للاستبدال واستعارة» للرهانات ، ونقلادم ليس من الفضيلة نفسها إلى شرایین الجسد الضعيف ليس البحث عن الحداثة ، وإنما البحث عن الحداثة **الضد** هو ، في زعمي ، مكمن الالتباس ، فبدلاً عن معمار الحجر أو القباب تبزغ أبنية الألوميتال ، وبدلًا عن تحديث الزراعة الطبيعية تبزغ الصوبية . وبدلًا عن التطوير الكفء للتكتنيات الإنتاجية يبزغ التطوير الكفاء للإعلان الاستهلاكي عن السلعة .. وهكذا . باختصار ، يتم بالتدريج استبعاد الحاجة الإنسانية والغاية الإنسانية من منظومة الحركة الاجتماعية العامة لصالح الأشياء في ذاتها . وما لا شك فيه أن هذه الأشياء تخلق ، بدورها ، حاجة وغاية جديدين لدى الإنسان ، ولكنها حاجة وغاية غير أصيلتين فيه .

من طبيعة الحداثة ، في مفهومها المنشودة ، أن تستجيب للتغيير استجابة عضوية . فتخلق حالة من حالات الأصلالة الجديدة ، ولكن الحداثة الرخوة (مثلها مثل الدولة الرخوة) تنتفع على التغيرات دون تحكم أو تنظيم . هذه هي المشكلة التي يصعب على البعض إدراكها . ومع رياح الكونية والعولمة (وعليها مثل مالها) تصبح حداثة السوق جزءاً لا يتجزأ من ثقافة السوق التي تمثل ، بدورها ، جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد السوق . قابلية كل الأشياء للتسلع (من السلعة) هي الخاصية المهيمنة في هذا النظام . ودائماً ما يتم توسيع نظام السوق عن طريق الاليتين: الموضة، وأيتكار المزيد من موضوعات الحاجة . والاستسلام لهاتين الاليتين هو ما يخلق ، في الحقيقة ، التربة الاصطناعية للتناقضات ، فبدلًا عن تناقضى مع واقعى «مع نقسى» مع ظروفى ، أتناقض مع احتياجاتى الأصلية ، مع غايياتى ، مع انتماماتى ، وببساطة ، تصبح اختياراتى ، شيئاً فشيئاً ، اختيارات وهمية .

أريد أن أتكلم هنا ، عن إيهام الحداثة أو عن الحداثة المتوهمة. إن هذا الموضوع يشغلني منذ وقت طويل . وأنا أظنه موضوعاً يكشف كثيراً من التباس اللحظة الشعرية الراهنة . أنا شاعر ينتمي إلى حركة الحداثة العربية في موجتها الثالثة (سبعينيات القرن) ، لرهان الحداثة جزء من تكويني الذي لم أنقلب عليه ، ولكن سؤالي هنا: أيّة حداثة ؟ ما جذورها ؟ وكيف تتشكل ؟ وبم تصوّغ تجلياتها ؟ وقبل أن يلوح أحد بمشروعية التباهي في وجهات النظر إلى الحداثة . ويحق الآخر في تبني مشروعه الخاص الذي لا يشاركه فيه حادث آخر سواء أكان من جيله أم من جيل سواه ، فانا أعترف ، بدأ ، بمشروعية التباهي وبخصوصية الفعل كليهما ، ولكنني أؤكد ، في الوقت نفسه ، أن التباهي والخصوصية هما قيمتان جمعيتان بقدر ما هما قيمتان فرديتان ، فكما أن ثمة ما يخصني وما يغايرني عن عقبي في مطر وعن حلمي سالم وعن عماد أبو صالح فينبغي أن يكون ثمة ما يخص ثلاثة نا وما يغايرنا عن فرناندو بييسوا وعن هنري ميشو ، وعن رونالد جونسون ، وذلك بالرغم من مشروعية التفاعلات الثقافية التي لم تمنع صلاح عبد الصبور الإفاداة من إلبيوت ، ولم تمنع البياتى الإفاداة من لوركا ، ولم تمنع سعدى يوسف الإفاداة من ديتسوس.

يقف إيهام الحداثة في منزلق غريب . هذا المنزلق هو انكماش قيمتي التباهي والخصوصية في مستواها الجماعي منذ أواخر ثمانينيات القرن تقريباً . هناك تجارب عديدة تکاد تتحقق إخفاقاً عظيماً في تحديد هاتين القيمتين بوصفهما قيمتين جمعيتين وفي ابرازهما . ومن الخطير جداً بوصفى متلقياً أن أسأله : أيهما كتب القصيدة : أمجد ريان أم بريتون ، محمد متولى أم جاك بريفير ، ميلاد زكريا أم كلوبيل ؟ إن مجرد إثارة السؤال يفترض نوعاً من الاغتراب الدلالي إذا صبح التعبير . هذا الاغتراب الدلالي - فيما أرى - هو لب الحداثة المتوهمة ، فالشاعر يستدمج أسطورة الآخر في ذاته . ويتشبعها ، ويبدأ الكتابة من نقطة تقصصية لها .

تحتوى الحداثة المتوهمة على إبدالات تعويضية أخرى مثل استعارة الأحداث أو طريقة الحياة أو القرائن المرتبطة بازمنة وأمكنة لا تنتمي إلى صاحبها . وتصل الحداثة المتوهمة إلى ذروتها باستعارة الموقف أو الرؤية

دون قيد أو شرط.

لنقراً هذا المقطع الافتتاحي مثلاً من قصيدة محمد متولى (Some Phi-
lanthropist) فالنلاحظ كتابة العنوان بالإنجليزية:

هذا البدن الطيب العينين

الذى يفضل الانزواء على أحد المقاعد المشمسة

صباح يوم عطلت

ناسحاً بكرشه عدسة الكاميرا صديقته الوحيدة

المعلقة في رقبته

ليصور جروأ يزكُّ بين الحشائش.

سيسعده أن يتبادل معك ايتسامة صباحية.

هذه الصورة للمشاركة الإنسانية الخيرة Philanthropy التي تضم في مشهدتها الرجل الوحيد والمقدد المشمس ويوم العطلة والكاميرا والجرو والحسانش والابتسامة الصباحية هي صورة تنمّ في جوهرها عن حالة إنسانية غربية شائعة، وما كان عليه إلا أن يقول «صباح يوم الأحد» بديلاً عن «صباح يوم عطلة» لكي تتأكد الحال المستعارة بقوة.

إن العجز عن تقديم نموذج الوجود الخاص في ضوء جديد هو أزمة مر渥عة من آزمات لحظتنا الشعرية الراهنة. ولا ينفصل هذا العجز ، بالطبع عن سائر وسائل التعامل مع اللغة ، مع الصورة الشعرية ، مع الموسيقى ، ومع التركيب . ولأن الشاعر يكتب بالعربة ، رغم كل شيء فقد صار ما يمكن أن نسميه الفضام الخيالي هو أحد المظاهر الكثيبة للحداثة المتوجهة.

لنأخذ بعض الأمثلة الأخرى من تجليات اللحظة الشعرية الراهنة:

١- هوت نجمة / فأسقطت الحداشى فى شهقة النص / يشرب برق الشظايا / باطراف / يشمق الكهرباء / إشارتها الثانية : حجرات فى آخر السطر / نار على شجر / لو / مرايا الأساطير / لا تعبّرى جسدى / يا البيوت القديمة : لا تدخلنى لهب المرج .

(هل هذا مدارك - شريف رزق)

٢- لن أموت تماماً

فقط سأنفض عن رأسي ذاكرة كثيبة

اختلق سبة وأسميها حياتي المستقبلية
ثم ألقى بها على مؤخراتهم
أنهمك في القراءة والترجمة
وألهوا أيضاً
بمتابعة اختلاف ثيرات القحط ليلاً
بين الجوع والخوف والغزل
أشياء تذكر بأنك ما زلت تحيا
وتحدث أيضاً بعض الرضا في النفس

(نصوص لهدى حسين)

٣- بينما الحجر يسير
أمام الخزير البري
ويقلع الشاطئ بكامله
تحسست حبيبتي جزرها الخمس
ضاجعت محفة الرمل
وتركت لى عنباً أسود
وجبلًا مرمياً على رأس المحارق

(خرائب لـ محمود فرنسي)

٤- صفة أبوه
فهرب من المنزل
لم يتسلل
يمسح بكم قميصه
زجاج العربات
وينام في الحادائق
لا يفكر في العودة مطلقاً
لكنه
أحياناً
في الليل،
ينتظر مدمني البانجو

إلى أن يغيبوا عن الوعي
ويندس بيئتهم
ربما يمرر أحدهم يده
برفق.
على رأس

(صبي لعماد أبو صالح)

تبعد اللحظة الشعرية الراهنة ، من واقع الأمثلة السابقة ، موسومة في
أغلب تجلياتها ، بممارسة الشعرية خارج إطار القوالب الإيقاعية كلها ، كما
تبعد موسومة كذلك باقتراب أكثر من أحدقطبين: إما الصورة السريالية أو
اللغة العارية (لغة بلا صور) ، وتبدو -أخيراً- مولعة بخطاب الانفصال:
انفصال الذات عن كل سلطة بما في ذلك نفسها . إن خلع ثوب المعايير
الجمالية المنضبطة للنوع الأدبي هو الموازي الفنى لخلع ثوب الألفة والانسجام
مع المجتمع والحياة والقيم كافة.

إن ثمة وعيًا قد تأسس خارج الأطر لأن قضية واحدة من القضايا
السياطيرية لم تعد أهلاً للصدق . فقد ذال عبث السراب ، لحقبة طويلة ، كل شيء
(الآلام الاجتماعية- والسياسية والاقتصادية على حد سواء) ، واهتزت الثقة
القديمة في خطاب المؤسسات حيث أثبتت التجربة ، أكثر من مرة ، زيفه أو
تلعبه أو عجزه أو تهافتة . صارت الأسواق أشواقاً خادعة . وبين رغبة التمرد
الجامحة والرعب من آلية النظام الرادعة لم يبق إلا الخروج على الذات بمعناها
الثقافي السادس ، على آلياتها وقوانينها ورمجعياتها كأنه نوع من الثأر
المعكوس . بيد أن هذا الثأر المعكوس يمْهُ نفسه لأنَّه لا يعترف بكونه إبدالاً
تعويضياً . بل ينزع إلى الزعم بكونه مغامرة تؤسس حرية الجمال والذات
معاً . وربما اتفقنا أن هذه الحرية تبعد من داخل الذات الثقافية نفسها ، من
إعادة تشكيلها على نحو جديد ، لا من نقضها والخروج عليها . وهذا ما كنت
أعنيه بالتناقض مع الحاجات الأصلية ، مع الغايات ، ومع الانتقاءات مما
يجعل من الاختيارات المبنية على ذلك التناقض اختيارات وهمية
بالضرورة . الحداثة ، إذن ، هي تطور طبيعي للتفاعل وال الحوار مع تاريخ الذات
الثقافية بكل أبعادها في لحظة يتبلور فيها هذا التفاعل وذلك الحوار عبر



معطيات كيفية بعينها . والحدثة في مستوى آخر (مستواها غير التاريخي) مجاوزة للعلاقة بين الذات والتاريخ نحو أفق يعاد فيه تشكيل التجارب والآفاق والمشاعر الإنسانية الخالدة تشكيلًا يخضع لل بصيرة الفردية الغذاء (كما هو الحال في بعض أشعار المتنبي وأبي نواس ونشر أبي حيان التوحيدى والتنفري) . وفي المستوى الثاني يصح أن يلتقي عمر الخيام وأبو العلاء المعري وصلاح عبد الصبور وجارثيا لوركا وكافافيس عند نقطة ذوبان الطيف ، ولكننا في المستوى الأول (المستوى التاريخي) لا نستطيع أن نتعامل بالمنطق نفسه إلا إذا شئنا تغريب السياقات الأساسية التي تنبثق عنها الأساليب والأشكال والدلائل الخاصة . وبالطبع ، فإن تغريب السياقات الأساسية لا يخدم الحقيقة بقدر ما يعمى النظر عن الأسباب والعلل والمكونات ، ويضفي نوعاً من الزيغ على الاستنتاجات والتأويلات الذرائية .

من المهم أن نذكر أن البذور الجنينية الأولى لآخر موجة من موجات الحداثة الشعرية قد تواجدت في فترة مبكرة ، نسبياً ، إذ إننا نجد بعض مظاهرها عند أدواتيس وأنسي الحاج وعباس بيضون وبول شاؤول ثم ، بعد ذلك ، عند عدد من شعراء المهجر الجديد مثل صلاح نيازي وأمجد ناصر ونورى الجراح « في مصر عند عدد من شعراء السبعينيات أنفسهم مثل أمجد ريان ومحمد عيد ابراهيم و محمد أدم و جلمن سالم بدرجات متفاوتة ، بيد أن الهاشم الشعري ، منذ ذلك الحين ما انفك يتحرش بالمن ، ويناوشه ، ويتسع يوماً بعد يوم على حسابه . ولم يكن ذلك ضعفاً في المتن ، حسب ظنى ، بقدر ما كان حالة آنية للثقافة ته jes بتوقفها عن النمو والتطور في الاتجاه الأكثر عافية نتيجة للعزلة المتبدلة بينها وبين الواقع من ناحية ، واحتلال المس الاستشرافي أو المستقبلي الذي يتطلب درجة عالية من الاستقرار الاجتماعي والسياسي من ناحية ثانية .

كان أحمد عبد المعطى حجازى قد كتب في ديوانه (أشجار الأسمدة) معبراً عن مرارة كامنة يقول :

نحن في حاجة لورق !

فالقصيدة أبسط من نقطة في البياض ،

القصيدة ملح ونفع عرق

وخيوط نشد بها ريشنا القزحي
القصيدة موت قصير يعود بنا لطفولتنا
ويسرينا في المساء الدبق

يا إلبي ! وإخوتنا الشعراء يسيرون
من نفق لتفق
لهم لفة لا تودى إلى أفق
ولهم ورق يحترق

فلنلاحظ ماذا تعنى لفة بلا أفق . إنها تعنى الاستدارة على نفسها .. تعنى الانكفاء .. تعنى العزلة الموجعة ، ولعلنا نفضل جميعاً أفقاً بلا حداثة على حداثة بلا أفق . ولكن ترى ما الذي يمنع وجود حداثة ذات أفق في لحظتنا الشعرية الراهنة ؟ أظن أن المانع من وجود ذلك هو الظرف الواقعى الغريب الذى وضع الحداثة أمام الشعرية فكانه وضع ، بذلك ، العربية أمام الحصان لعل هذا الظرف الواقعى الغريب ليس أكثر من تشوه فى الوعى بمنطق الترتيب السليم . وربما نتاج هذا التشوه عن طفيان المعرفة النظرية على الممارسة العملية الخلاقة ، أو ربما نتاج عن إيدال تعويضي يستبدل بتألف الواقع حداثة النص ، أو ربما نتاج عن اعجاب مبالغ فيه بنموذج الآخر . المهم أن هذا التشوه قد أدى إلى التركيز على عنصر واحد فى المعادلة وإهمال العنصر الأكثر أساسية .

إن حداثة ذات أفق تعنى ، فيما أرى ، إعادة اعتبار الشعرية أولاً ، وبمفهومها الثقافى الخاص (أى الشعرية العربية) مع العمل على التوسيع من دائرة ليتاج له النمو الداخلى من جهة ، وليتمثل ما هو عام ومشترك مع الشعريات الأخرى من جهة ثانية .

ثمة نماذج مطروحة للحداثة بدءاً من أدونيس والبياتى ومروراً بسعدي يوسف ومحمود درويش وحسب الشيخ جعفر إلى محمد عفيفى مطر . وكل نموذج اشتباكه مع النموذج الآخر ، تداخله وتخارجه معه . ومن الطريق أن ندرك الاختلاف -تأسيساً على هذه النماذج -بوصفه تميزاً لا تمایزاً فحسب . وقد ندرك ، أيضاً ، أن الشعرية ، مع تراوحت درجاتها ، هى التى صاغت

حداثية هذه التمازج وليس العكس.

وغير تراشنا الشعري القديم، كذلك، طرحت نماذج الحداثة نفسها بدءاً من هذين الاعتبارين . التميز ، والشعرية، فقصائد أبي تمام وأبي نواس والمتبنى وابن المعترز وابن الرومي وديك الجن الحمسي عبد طرقاً جديدة لم تكن مأهولة من قبل، وقجرت من داخل الذات الثقافية -بداية سينابيع حساسية جديدة في اللغة والصورة والتركيب ، وأسست معرفتها الخاصة عن طريق فاعلية الخلق الشعري ذاته ، ولم تكتف بإثارة غبار الدهشة ، أو صدم وعي المتلقين باجترار مسلمات ذلك الوعي ، أو إعلاء عنصر الغرابة والعجب على غيره من الفنادير.

إن الانتباه إلى مفارقة طبيعة الفن لآلية الانعكاس المباشر أمر يتبعى الإلحاد عليه فى لحظة تاريخية تتسم بقفز كثير من التشويشات وحالات الاضطراب الموجودة فى الواقع الخارجى إلى داخل التجربة الشعرية على نحو شديد السرعة . فما يميز الفن هو وعيه بالاستلاب الذى يعترى الوجود من حوله ، ومن ثمَّ تنظيمه لبنية تعبيره بطريقة أو بأخرى ، وهو حين يعبر عن التشظى الخارجى بالتشظى الداخلى يفعل ذلك أيضاً من خلال نظام خفى يمكن اكتشافه ، ويمكن التدليل عليه .

إن تشظى العالم فى القصيدة يراعى التناسب بين المظهر الدلائى والمظهر الجمالى لها بحيث تبدو ، فى النهاية ، محكمة بذلك التناسب . وتنتمى هذه العملية عن طريق التغذية الرجعية بين اللغة والحدث ، فتوجيه كل منهما للأخر والتحكم فى حركته يحتفظ فى طيه بتيار المعنى حياً وناشطاً.

نقرأ من قصيدة (زيارة) لـ محمد عفيفي مطر:

طيناً من الطين انجبلت فهى دمى المركوز
من طبع التراب الحى: قورة لازب وتخمر
الخلق البطن؛ ووقدة الفخار فى وهج
التحول ، وانتشار الذرو فى حرية الحلم،
انفراط مسابع الفوضى حمى، وصلابة
الذولاذ فى حدق المجارة والبيوقيت.
انطففت بنشوة الحمى ، الاوابد من وحوش

الطير تعلمنى وترق فى حوالتها أعاين
محنة الملوك والأرض الفسحة..

يكشف هذا المثال عن إحدى الطرائق المدهشة فى تنظيم التشظى الداخلى
الذى يعبر عن التشظى الخارجى ويصوره من خلال تبادل فعال بين اللغة
والحدث . وهو ما تتحقق فيه تماماً قصائد شعرية أخرى يقوم التكافؤ فيها بين
التشظى الخارجى والتشظى الداخلى على تعطيل تيار المعنى كما فى هذا
المثال من محمد عبد إبراهيم:

غلة بفتات السنين،
وخاضع رثٌ ، لا شيء يسقط فوق
قتلى،
جناح حصارِيتامُ
هل يغرينى؟
مقاتل يلطفه الاحتمال
(فاجاتكم غداً)

هل نتذكر «جون كوهين» فى قوله : كل
أسلوب انتهاك ، وليس كل انتهاك أسلوباً؟

إن اللغة هنا تعصف بدلاتها بسبب البتر والفجوات والأخلاق المقصود
بالتركيب . والحدث الأساسى هو تشظى اللغة نفسها بوصفها معادلاً لتشظى
العالم . القصيدة أيقونة للتشظى لا غير . كان شفرة المعنى تسخر من نفسها
وكان المعنى ذاته يسخر من شفرته . استدارة مبهمة على كلمات المعجم التى
تحاول أن تصبح تعزيمة سحرية فيما تلوذ بفراغ معمتم لا يفصح عن هويته .
ثمة ما يشى فى هذه الكتابة بأن الغياب هو الذى يتوجه الحضور إذا ما
استدعياناً « جاك ديريدا » ، ولكن هذا الحضور نفسه حضور ملفوف بالسراب ،
شبع أو طيف خيال . إننا - ببساطة - أمام لغة يائسة من الحضور . ولذلك
فهى تنتقم منه فيها . بيد أنها « فى كل الأحوال ، تخفي ضفينة ما نحو الحياة .
ـ هذه الضفينة هي عالمة وجودها المهزوم وعلة هزيمته .

تجدر بي
هذه الحياة التى قبلتني ، لكن

(نقط) لـ محمد عبد إبراهيم

سوف تكشف آخر أساطير الحداثة عن نغمة جديدة هي: الضجر مما يمكن أن يسمى بـ «عبء الانتماء إلى نظام ما .. أى نظام في الوجود». ويبدو أن هذا هو الخطط الشفيف أو الخفي الذي يربط خطاب الحداثة الغربي بنظيره العربي في لحظتنا الراهنة، برغم ما بين المجتمع ما بعد الصناعي والمجتمع النامي أو المتلخص من فروق واسعة، إذ تختلف أسباب القسوة والعزلة والاغتراب والجحود والرفض والتمرد، ولكن هذه الأشياء تتخل هي في ذاتها وإن اتخذت صوراً متباعدة وأشكالاً شتى.

ونغمة الضجر من عبء الانتماء إلى نظام في الوجود تكشف عن شعور ثقيل بالعجز تحت وطأة استبداد متصل أياً ما كان مصدره، وعن عطش جارف إلى حرية فريدة تعوض الإنسان خسرانه الطويل، ولكن لا حرية مطلقة في ظل بناءات مادية أو رمزية، بسيطة أو مركبة، تبدو - في الحقيقة - هي الجوهر الثابت للحياة الإنسانية نفسها منذ أول الزمان.

بيد أن انفصام الإنسان عن كونه جزءاً من الطبيعة الحية المتحركة بلا نهاية، وعن البكارة الكونية، وعن إيقاع الدورات المقدسة للفصول الحياة، وعن السر الفطري لها، واكتسابه شكلاً من أشكال الوعي الشقي الذي أفقده السلام والمصالحة مع ذاته، ومع الآلهة، ومع الآخرين في العالم، قد جعل من وجوده الداخلي وجوداً مهشماً وأضفى زيف الأقنعة على خارجه.

لقد دارت أسطير اليونان القديمة كلها حول صراع الإنسان مع الآلهة تعبيراً عن البطولة الشقية، وهو ما لم تعرفه أساطير الشرق على هذا التحول العنيف. بيد أن الروح الاغريقية الدامية التي ميزت من أطلق عليه «اريك فروم» «مصطلح» البطل الوثنى، قد تم، فيما يبدو، تعليمها داخل ثقافة الحداثة المعاصرة. ولم يتحقق أزوريس أو آيزيس أو عشتار أو توز، برغم وجودهم أسماء، ورموزاً في شعر الموجة الأولى من الحداثة العربية، بعض الذي نجح في تحقيقه سيزيف أو بروميثيوس في المقامرات التجريبية الأخيرة وإن لم يوجدوا أسمين أو رمزيين. إنهم بالآخر يمثلان أسطورة النص المتأخرة أو مناطق توليد الدلالة في لغته اللاوعية.

١- وكالموجة التي تنشب أظافرها
في جسد الإعصار،
دخلت بي هذا العالم
قائفاً بذخيرة الأيام في قعر جهنم
شاحذا أعضائي بشفرة صنعت من غياب
وكففل يلعب دائمًا بخسارة،
لم أننتظر شيئاً كثيراً من أشباهى
لم أننتظر أى شيء
عدا ضجيج التوازد والأبواب
تنفتح وتنغلق جانب رأسى
ببراءة العواصف الراحلة من غير اتجاه

(سيف الرحبي / مت suction لا يحلم بشئ)

٢- منذ تسعه وعشرين عاماً
أبني أعشاشاً بمنقار الوحدة،
تفسدها البريح ..
لم تستقم اليدي على الشجر
(تحب الأوراق أن تبقى على أغصانها
حتى تتحرك ، لأنها لو فارقت الشجر
لم تجد الربيع!)

(حبيبة محمدى / وقت في العراء)

٣- في أقرب خلاء
ضع زادك من الحياة
ضع حمولة كتفك
ضعها عميقاً في الأرض
دون صراغ
دون أتربة المقابر
دون دمعات حارقة
وعندما تنتهي

وتكون الحياة قد اسودت تماماً
ماذا ستفعل؟.

حاول أن تنزع فتيله رأسك
وتنمدد بجانبها

(أحمد يمانى / تحت شجرة العائلة)

٤- رجال .. كنت وحيداً ألعب بالحرائق
أكبح طاحونة في الحلم وأرمي الأكانيب النبيلة
وفي خمرة الحسرة
انتبه بالدرك السفلي
الذى ستكتن فيه الحضارات نفسها

(علاء عبد الهادى / سيرة الماء- كيف أشرق النار؟)

لابد أن نذكر أن البياتى قد كتب عن بروميثوس وأن أدونيس قد كتب عن سيزيف ، ولكن السياق الشعري -آنذاك- كان ينطوى على جدل مستمر بين سؤال الوجود وسؤال العدم ، وكان ذلك يعني رغبة فى تقليل تربة الحياة والأفكار وال العلاقات ، وانحيازاً إلى قيمة المواجهة ، يكشف السياق الشعري الان عن مشهد مختلف ، إذ يتجاوز ، غالباً ، سؤال الوجود وسؤال العدم ، ويعضد موقف اليأس الشائع من الانتصار للثانية على الأولى بصورة واضحة . لتق كشفت اللغة عن حياة بدون حياة لأحد ، وامتدت سلسلة الميتات الكبرى لتشمل موت الإله ، ومموت الأب ، ومموت المجتمع ، ومموت الذات نفسها.

هكذا أصبح الهروب إلى بيرليسک* الجسد ، مثلاً ، مجرد ولوج إلى إلى يوتوبيا اصطناعية تحاول أن توفر السلوى والعزاء للإنسان المغدورة ، لأننا التي تصر على رثاء روحها الضائعة دون جدوى.

١- فعلًا

هذا الشتاء ،

أنا بحاجة إلى مزيد من الانحطاط

وإلى عشيقاتي القديمات

* أسلوب فني يتصف بالبالفة والصلب والسخرية، وينطوى على نقد جارح للتقالييد الاجتماعية
الرامنة

ترى.

ماذا يخفي الفراش الوشيك؟
عندما انفرد بخبرتها التي اتسعت
-فى غفلة منى-
بأكثر مما يجب
ونهديها للذين فقدا تماسكهما
بعض الشئ
وأعصابها التي اكتسبت مثانة
من نذالة الرجال

(عاطف عبد العزيز / اثنان إلى مائة)

٢- ما زلت بقلقى وروحى الخربة
او ارب نظرتى وامر وحيداً
امارس الحب بخوف مع حبيبى
وأرضع منها كطفل مذعور
متحسساً الحيطان والعيون المتلصمة كشبابيك
أشتاق لدمها كل شهر وأدخن أكثر
وبرغم عراك الملائكة والتيس حول سريرنا
طوال الليل
نصنع أطفالاً بلا ملامح يثثرون في قعر الغرفة
عن ملوكوت الله وخبزه

(جرجس شكري / قداس فاطمة)

لم يعد الحب، هنا ، بمفهومه المثالى القديم، هو الخلاص، كما هو الحال عند عبد الصبور أو نازك الملائكة أو البياتى أو السيباب، بل لم يعد الإيروس نفسه هو الخلاص، كما نجد لدى أدونيس أو نزار قباني أو سعدى يوسف فى كثير من الأحيان : الحب خدر مؤقت مثله مثل الخمر والبانجو والموسيقى والكتب . الحب ليس طلباً للذلة المحسنة بقدر ما هو نشدان حسى صاحب للنسينيان . الحب هو نشوء العرى العابرة فى اشتباكها مع صورتها عبر عرى الآخر ، لذلك فإن طريق الجسد نفى وإثبات متصلان: نفى للعالم الخارجى ،

وإثبات لحضور الفعل بصورة لحظية. وفي هذا النفي وذلك الإثبات، على ما بهما من رواغ . تكمن فرصة الانفلات من ضغط الاستيلاب الموجع، وتنتحف الذات قليلاً من إحساسها العميق بالاغتراب أو الموت .
سوف نلاحظ أن ثمة مكانة كبيرة للعنف في الثقافة الحداثية للجسد خاصة في الشعرية الغربية التي بلورت هذه الفكرة بداية من أشعار لوتيامون وبودلير وأرميو .

لقد صار البطل الجديد، كما يقول والاس فاولى، هو الإنسان غير المنجم ، ذلك الذي يمثل ما يدعوه علماء النفس بالمزاج الانفصامي (وريما السادس كذلك في بعض الأحيان). انتقلت صورة ذلك البطل إلى الشعرية العربية الحديثة ، ربما بداية من أدونيس والجاج والماغوط، ثم ظلت تنتمي إلى أن شارفت موقعها الحالى على النحو الذى نراه فى:
أنا بحاجة إلى مزيد من الانحطاط
أو:

اشتاق لدمها كل شهر وأدخن أكثر
وليس عصياً أن نجد الملامع الأساسية الأولى لذلك البطل المستشار
(باستثناء ظل نرسيس الذى لم يعد موجوداً لفروط الشعور بالقهوة) فى:
أصبعد إليك هابطا إليك
أجمع أقاصى همومي وأطرايفها
أرجم الشوك بآياتي وشهبى
مشتدأ كالرياح آخذأ بيدي الكواكب:
أغسلها وأنطفئها
وأجهج عليك بقلبي
وأقول للوسوسة أن تطوف بي على كل خلية فيك

(أدونيس / تحولات العاشق)

أود أن أنتقل ، عند هذا الحد ، إلى نقطة مهمة من نقاط حوارى مع اللحظة الشعرية الراهنة وتجلياتها : فقد انطلق آخر خطابات الحداثة الشعرية فى العرب من متواالية ثقافية حداثية شاملة انطلقت بدورها من واقع توفر على فرز تاريخه بينما انطلق آخر خطابات الحداثة الشعرية العربية من

مجموعة أفكار ، قد يكون من بينها نقد الواقع والتاريخ العربين ، ولكن هذا النقد نفسه ظل جزءاً من حركة الفكر لا جزءاً من حركة الواقع الذي ما انفك يرسف في أغلال التخلف والتبعية.

ما مشروعية خطاب كهذا؟ وما مصداقه؟ وإلام يفخم؟ أظن أن المفارقة التي ينطوي عليها خطاب الحادثة الشعرية العربية في طرحه الراهن تكمن في ذلك التناسب المفقود بين حركة الأفكار وطبيعة المرحلة التاريخية . ولذلك يظل هذا الخطاب -معنى ما- خطاباً نخبوياً معزولاً . لقد سمحت حركات التحرر والإصلاح والنهضة في منتصف القرن وما قبله بقليل بظهور وهي جديدة مهد للتحول، وأنطلق شراره المغايرة ، فانبثق خطاب الحادثة الشعرية الأول من خطاب ثقافي نهضوي وقومي شامل ، وانبثق هذا الأخير بدوره من واقع يبرر بزوجه وانتشاره . وبعد أربعة عقود لوح خطاب حداشى جديد بوجوده الفرد ، مجترحاً الخطاب الأول وامتداده وتطوره عبر أكثر من جيل ، معلننا في كثير من الأحيان -استقلاله الصريح عن ما عاده في فترة زمنية ارتد فيها الواقع الأول سريعاً ، وانقلب على نفسه ، ولم يستطع تبرير نوكمه . ومعنى هذه الظاهرة هو إما أن يكون ثمة ادعاء عار من الصواب علينا ألا نصدقه ، وإما أن يكون الخطاب الحادثي الراهن تأكيداً لمبدأ الفحص الذي صار يحكم أشكال حياتنا . وهناك طريق ثالثة هي أن يكون هذا الخطاب نوعاً من الامتداد والتطور للخطاب الأول . وهذه الطريقة جديرة بإعادة النظر والتأمل ، لو لا أن الخطاب الحادثي الراهن ، فيما يبدو لي ، يمتد ويتطور في اتجاه غريب ، ليس هو بالطبع أكثر الاتجاهات وعدا وإشراقاً أو نضجاً وتناغماً مع الغاية المنشودة .

السينما الاسرائيلية، الشرق/ الغرب وسياسات التمثيل (٤)

تأليف: إيلا لاشوهات

ترجمة وعرض: د. أحمد يوسف

نبذة صورة العربي في أفلام «الشجاع»، الاسرائيلي، مثل فيلم «كانوا عشرة»، لباروخ دستانر . و «سينايا» أو «السيناوية» أو «امرأة من سيناء» لإيلان إيلداد، و «مستمرون على النور» للكسندر راماتي، كأنها تطابق الصورة الجنينية لشخصية العربي كما ظهرت سابقاً في فيلم «الصابرا»، إذ أنه يتم النظر إليها من خلال نظرة مزدوجة، فهي إما تجسد العربي الممثل الذي يقبل وجود وسلطة دولة إسرائيل ، أو العربي الرافض لها. أما صورة البطل الإسرائيلي الأسطوري -سواء كانت من رجال الصابرا الذين يعيشون في المستوطنات التعاونية أو كان جندياً (أو كان الاثنين معاً) -فإنها الصورة التي تتبع من نمط «الشجاع»، الأخلاقى صاحب المثل والمبادئ في أفلام البويسترن . ولأن هذا البطل يجسد الإنسانية والتعاطف، فإنه يقوم بدور تبشيرى في تحويل أهل الشرق البدائيين إلى الإيمان بالقيم الغربية.

يدور فيلم «مستمرون على النور» -الذى كتبه وأخرجه وأنتجه الكسندر راماتي- حول المناوشات -والصدامات اليهودية / العربية في عام ١٩٤٩، حيث يحكي حكاية صراع بين «الشيخ» العربي الذي يدعو للسلام، وابنه «الإرهابي» المتمرد ، وحكاية أخرى عن امرأة مسيحية أمريكية تقوم برحلة «الحج» إلى قبر حبيبها اليهودي الأميركي . وبينما تدور أحداث الفيلم كلها خلال يوم واحد، فإنه يجعل المتمردين «الارهابيين» -بقيادة الشيخ- يزرون الطرق باللغام وبهاجمون نقاط

الحدود الإسرائيلية . كما يسرقون ويقتلون أبناء قريتهم العرب بدعوى حاجتهم للسلاح والطعام والمال . وإذا يموت أحد الإسرائيليين بسبب لغم متفجر ، فإن البطل الإسرائيلي (توم بيل) والأمريكية سوزان (ديان بيكر) -والتي كانت في طريقها إلى المطار لتعود إلى أمريكا -يبحثان عن العون في القرية العربية ، حيث يجدان المئوي عند الشيخ داود (دافيد أوباتشو) ، لكن ابنه سالم (بول ستاسيينو) يشن هجومه عليهما . ليصاب دان بجروح ، ويقع مع سوزان -وهما تحت الحصار- في نوبة حب مفاجئة . لينتهي الفيلم بمصرع سالم على يد أحد أصدقائه ، أبيه ، وتقود سوزان السيارة لتعود مع دان الجريح إلى المستوطنة اليهودية ، وقد قررت البقاء في إسرائيل .

إن اسم الفيلم « متمردون على النور » يوحى على الفور بالنظرية إلى الغرب على أنه منبع النور والتنوير ، لكن الأهم هو أن ذلك الاسم يوحى أيضاً برواية توراتية فالفيلم يبدأ وينتهي باقتباسات من العهد القديم ، مع إسقاطها على الزمان المعاصر لتتوحى بدلة محددة للأحداث التي نراها على الشاشة . فعلى مشهد البداية يأخذ الفيلم من «سفرأيوب » (١٢:٤٤) الاقتباس التالي : « أولئك يكونون بين المتمردين على النور لا يعرفون طرقه ولا يلبيثون في سبيله » ، حيث « النور » يشير على نحو مجازي إلى طريق الحق الذي يرفضه الأشخاص الضالون ويمتزج هذا الاقتباس (بالطبع المزدوج) بلقطة عامة للغرب وهو يجلسون إلى جوار خيامهم بينما تمتاز عنائهم أسماء الفنانين المشتركين في الفيلم عامة للغرب المسلمين بهم يركبون جبارهم في الصحراء بينما تسمع على شريط الصوت موسيقى ذات ظلال شرقية زائفة من ذلك النوع الذي تستخدمه الأفلام الهوليوودية على نحو نمطي .

وفي الأحداث اللاحقة ، سوف يضع الفيلم بطله الإسرائيلي دان ، والمرأة الأمريكية سوزان و«العرب الطيبين» ، مثل الشيخ داود وأبنته نعيمة (ديدي راماكي) في حالة «حصار» (وكأنهم يمثلون عالماً مصفرأً للتحالف مقدس) ، مما يجعل المتفرج يتوحد ويتغاضف معهم ضد الذين يقومون بحصارهم ، أصحاب النزعة السادية والنظرة الشيطانية الشريرة . لكن فيلم « متمردون على النور » لا يقوم فقط بتقديم الصورة «الغرابية» للعرب ، لكنه أيضاً يرسم الصورة النمطية حول العالم الثالث ، تلك الصورة التي تسود في العقلية الغربية الاستعمارية ، فالعالم الأول ينظر دائمًا -على

نحو يمبل إلى الاختزال والتسطيح -إلى حركات التحرر الوطني المستمرة بالعنف على أنها تتضمن لذة شريرة لدى أبناء العالم الثالث ، الذين يمارسون القتل كجزء من طقوسيم الغربية في الأفنيات ، والرسوم الكاريكاتورية السياسية ، ومسلسلات التلفزيون . وأفلام السينما . وبصرف النظر عن الصورة «الغرائبية» للشرق الشهوانى . كما عرضتها السينما الهوليوودية في أفلام مثل «الشيخ» (١٩٢١) ، «سلسلة أفلام» قسمت (١٩٢٠، ١٩٤٤، ١٩٥٥، ١٩٣٠)، و«لورانس الصحراء العربية» (١٩٦٢) . وحتى فيلم «الصحراء» (١٩٨٣) ، فإن الهم هو أن العرب داخل السرد السينمائي الـهوليوودي يجسدون «أشياء شريرة و سيئة» ، تصل في شرها وسوانها - وهو ما يظهره واضحا في العديد من الأفلام المعاصرة، بدءاً من نهاية السينميات وحتى اليوم - إلى درجة الإرهاب ، على نحو ما ترى في فيلم «يوم الأحد الأسود» (١٩٧١) . حيث يتم تصوير الفلسطينيين على أنهم مجانين مهووسون بمعطشون للدماء ، بل إن العرب والمسلمين لا يزالون يمثلون صورة العنف الموجه للتطرف حتى في أفلام لا يتعلّق موضوعها من قريب أو بعيد بالشرق الأوسط، مثل مشهد المطاردة الكابوسي داخل مدينة في أواسط غرب أمريكا، في فيلم «العودة للمستقبل -الجزء الأول» (١٩٨٥) حيث يقوم الـأيرانيون «الإرهابيون» بمطاردة الفتى» الأمريكي». (يصورهم الفيلم على أنهم ليبيون وليسوا ايرانيين- المترجم).

وفيلم «متمردون على النور» يقدم هؤلاء «الارهابيين» العرب منذ بدايته مع مشهد العناوين ، يعودون بعدها إلى القرية العربية حيث يعرض صورا «غرائبية» للحياة فيها . ومثل فيلم «الصابرا» يقوم العرب . وكأن الفيلم يمنحهم بذلك فرصة تقديم أنفسهم- بالباء في رقصة مفاجئة دون أي مبرر أو تفسير ، لكنهم وقد غلب عليهم الخوف من هجوم سالم ، ابن الشيخ داود ، يهربون إلى بيوتهم ليتذمرون في أهل أن تصل الشرطة الاسرائيلية لكت تدافع عنهم ، تاركين الشيخ داود وحده يواجه ابنه الـأهابي ، حيث يصر الـابن على أنه وعصاياته يجمعون الضراibles التي يستحقونها بدلاً عن الاسرائيليين . ومن الغريب أن يدور الحوار بينهما كما لو أنه حوار بين صهيوني (يجسده هنا العريف المحب للسلام) وعماد للصهيونية (الإرهابي العرب) ، ولكن لغراية في ذلك، إذ أن الحوار -الفيلم كـأنه- ينبع من منظور صهيوني خالص ، وعلى أية حال فإن الحوار ينتهي بقيام سالم وعصاياته بشن غاراتهم



إنه الحوار بين الأب والأبن ، الذي يضع فيه الفيلم على لسان الشيخ داود عبارات سانحة عن السلام وعن اشتياقه له، ولوجه لابته واتباعه لما يسميه على نحو شديد التبسيط ، الكراهة . لذلك فإن حوار الأب العربي ليس إلا بوقاً لخرافة الاسطورة الصهيونية التي تضع في جانب واحد هؤلاء الذين يحبون السلام (الصهاينة والعرب الذين يرحبون بوجود دولة إسرائيل)، وتضع في الجانب المقابل هؤلاء الذين لا يريدون إلا «سرقة والقتل» والذين يستمرون في «القتل حتى لا يبقى يهودي واحد في فلسطين» .

وبينما يعرض الفيلم مشهد ارهاب سالم ، وعصايته للقرية ، فإنه يعرض في مشهد سوان الصحبة الأخرى لهذا الإرهاب : المرأة الأمريكية سوزان ، التي سوف تستقل من سر سبع إلى مدينة سدوم. إننا نرى على الشاشة تلك الحاللة من منظور الارهابيين العرب . الذين يتذمرون تفجيرها وهي في رحلة عودتها في المساء ، وأن المترجر يعلم أن سوران تحاطئ للعودة على تلك الحاللة في نفس الليلة . فإن عنصر التشويق يصبح أكثر قوّة على نحو ما كان يفعل هيتشكوك في أفلامه . إن هذه الطريقة في سرد الأحداث تجسد تماماً وعلى صناع الفيلم بأن رسالة الفيلم الصهيونية سوف تكون أكثر نثراً من خلال التوحد مع شخصية محاباة مثل الأمريكية المسيحية سوزان ، التي كانت لا تزال حتى تلك اللحظة لا تعرف شيئاً عن الصهيونية ، أو حتى عن الديانة اليهودية . كما أن رحلة المرأة في إسرائيل تبدو للمترجر كأنها رحلة للمعرفة والوعي بالفكر الصهيوني . إذا كانت تبحث خلالها عن السبب في إذا ما كان حبيبها الراحل سارك - اليهودي الأمريكي - قد تطوع في حرب إسرائيل من أجل الاستقلال بسبب دوافع عقائدية مثالية ، أو مجرد الهرب من مشكلات علاقتهم العاطفية . ومن هذا المنظور - فإن شخصية محاباة مثل سوزان تجسد شخصية أساسية في كل الأفلام الوطنية الصهيونية (سواء كانت انتاجاً إسرائيلياً خالصاً ، أو مشتركاً موجهاً للسوق الإسرائيلي) . فهي تمثل «المراقب الموضوعي» ذلك المسافر الذي يصبح في البناء السردي وسيلة للتوصيل الأيديولوجية الصهيونية للمترجر الغربي ، وهو المسافر الذي قد يكون يهودياً أمريكياً ، أو مسيحياً ، لكنه إذا هو اللامتنى الذي يجد نفسه وقد تحول إلى الالتزام الكامل بقضية إسرائيل ، من خلال رحلة تنوير تدريجية ، تصبح

أكثر نكاماً عندما تتضمن علاقة رومانسية عاطفية مع أحد أبناء أو بنات جيل الصابرا.

ويصطنع الفيلم ارتباطاً بين إسرائيل وبين الناجين من الهولوكوست، عندئذ سوف تذكر سوزان كلمات حبيبها مارك التي كان يرددها داشما فيما يشبه الرثاء: «لقد قتل النازيون ثلث شعبي، ويجب على أن أساعد الباقين على الحياة في سلام». إن نظرتها السازجة للأمر تبدو في البداية عندما تبحث عن باقة من الزهور -لكن تضعبها على قبر حبيبها، غير مدركة أنه لا توجد آية زهور في مدينة سدوم، «ليس حتى الآن على الأقل». كما يقول لها دان، لذلك فإن اللقطة التي تقف فيها سوزان أمام مقبرة مارك، وقد عجزت حتى أن تضع عليها بعض الزهور نصّور اكتشافها لزهيبة التضخيم التي قام بها وبهذه التفاصيل التي تضع جذورها في الأيديولوجيا الصهيونية، تتسلل الأفكار الصهيونية إلى وجдан المترعرع عن الرواد من المهاجرين البيود الآزادل الذين «جعلوا الصحراء تزدهر بالزهور».

كما أن الحوار بين سوزان ودان يعكس نظرية نرجسية ترضي فكرة الاسرائيليين عن أنفسهم، كما يغازل مشاعر المتعاطفين مع الصهيونية، حتى هؤلاء غير المدركون تماماً لتفاصيلها الأيديولوجية. إن دان يقول إنه يملك موهبة في فن التصوير الزيتي، لكنه تخلى عن مواهبه ليعمل في المستوطنات التعاونية، لأن «في إسرائيل يوجد العديد من من الأطباء والفنانين، لكن لا يوجد إلا القليل من العمال الاسرائيليين ليسوا مجرد جنود أو عمال، وإنما هم، أناس مستخدمون، ينتعمون إلى «الصفوة»، لذلك فإن حنين دان أن يعود إلى عالم الفن عندما يحل السلام يعكس صورة ابن جيل الصابرا (أو بالاحرى صورته عن نفسه) على أنه جندي لم يفقد أبداً - رغم الحرب - إنسانيته وحساسيته الفنية. إن ابن الصابرا في الأفلام الاسرائيلية «يُسيطر» لاطلاق النار بسبب كراهية العرب له - لكنه في أعمقه لا يحلم إلا بالعمل في الأرض، أو بصنع أعمال فنية، وأن يحمل النور إلى الشرق، سواءً بأن يقوم بتعليم العرب وسائل الحياة المعاصرة، كما في فيلم «عوديد الثالث»، أو بالعمل في الأرض كما في فيلم «متمردون على النور»، أو بتضميد جراح امرأة بدوية مثلما فعل الطيار الإسرائيلي في فيلم «السيناوية»، إن تلك العقلية التي تزعزع النزعة الإنسانية، التي يمكن تلخيصها في «أطلق النار ثم استرسل في البكاء» (أو «ضربني وبكي»،

وسيقنى واشتكى». إن تلك العقلية هي النزعة الصهيونية التي سخر منها الكاتب الفلسطيني إميل حبيبي في روايته «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبو الحمس المستائل».

إن فيلم «متمردون على النور» يستخدم أسلوباً شديداً للدهاء في أن يجعل ابن الصابر بطلًا يحمل سمات واقعية، ولا يستخدم العبارات الرنانة، لكنه من جانب آخر يبلور الفكرة الأسطورية الصهيونية التي تقول إن إسرائيل مضطربة لأن تأخذ موقف «اللأخيار». فإن سلوكه الخشن الجاد، واهتمامه بأهداف وطنه، وسخرية من المرأة الأمريكية «المدللة»، واحتياره الواقعى لأن يضحي بموهيبته وحياته، إن هذا جماعياً يسهم في تأكيد صورته كبطل على الرغم مما يبدو على السطح من أن الفيلم يجعله بطلاً واقعياً، أو نموذجاً للبطل المضاد.

من ناحية أخرى، فإن الفيلم يصطنع حواراً بين الشيخ داود ودان، يجلسان وهما يحسنان القهوة العربية بحيث يتحدث داود عن الفقر والتخلف اللذين اعتاد عليهما، بينما يعرب الإسرائيلي عن رغبته في العمل في الأرض، وأن يقوم برسم لوحاته عن الأنهر والثickets في وقت الفراغ، وكأنه يعيد تجسيد دور المهاجرين اليهود الأوائل. تماماً كما يفعل البطل في الأفلام الوطنية الأخرى، مثل فيلم «عمود النار» الذي يدور حول الحرب مع مصر خلال عام ١٩٤٨، ومع ذلك فإنه يوحى في بعض مشاهدته وكثوع من تخفييف وطأة مشاهد الحرب والعنف بتلك الروح الخرافية الرومانسية التي يلخصها الفيلم بالمجاهرين اليهود الراغبين في زراعة الأرض، كما أن الجندي الذي يمثل البطل في فيلم «لقد سار عبر الحقول» ينتهي إلى مستعمرة تعاونية حيث يدرس في مدرسة زراعية، لذلك فإنه لا يحارب فقط وإنما يزرع الأرض أيضاً. وهكذا فإن الشيخ داود يقر في النهاية بأنه قد عرف أن العرب قد قضوا القرون تلو القرون في الظلم، وأن إسرائيل ذات النزعة الغربية سوف تحمل إليهم النور، وفي لقطة يواجهان فيها الكاميرا - وإن كان داود يقع في الخلفية بينما يحتل دان مقدمة الكادر - يعبر الشيخ عن امتنانه للإسرائيلي لأنه أعطاه السماد الذي ساعده على زراعة الطماطم في الصحراء، وهو العمل «البطولي الفذ» الذي «لم يكن متاحاً لأبيه، أو جده، أو جدود أجداده»؛ إن الفكرة التي تعاود الظهور دائمًا في الأفلام الإسرائيلية، حول «جعل الصحراء تزدهر بالزهور»، نسمعها هذه المرة على لسان الشخصية

العربية الشيخ داود (الذى ينظر له الفيلم على أنه «العربى الطيب»)، كما أنه شهادة عن العرب أنفسهم على أنه يمكنهم الاستفادة من إسرائيل، بما يعني قبولهم وجودها وسلطتها كدولة، وهو ما يعني أيضاً أن العربى فى السينما الاسرائيلية -عندما لا يكون إرهابياً- ليس إلا شخصية سلبية غرائبية، وهو لا يحتل أبداً مكان «الفاعل» وإنما «المقuled به». وينتظر دائماً أن يأتي واحد من أبناء جيل الصابرا لكي يحمل له الخلاص. إن «العربى الطيب» فى نظر السينما الاسرائيلية هو العربى الذى يعبر عن امتنانه لإسرائل، فهو يقول لنفسه كما قال المدرس العربى للصهاينة فى رواية «أبناء المطر الأول» من تاليف إليزار سمولى: «يجب أن أقول لنفسي إن الله هو الذى أرسلكم لى تضربوا لنا مثلاً، ننظر إليكم ونفعل كما تفعلون.. إننا مدینون لكم بالرخاء، مدینون لرأسمالكم، لطاقتكم وحيويتكم، ولكل الأشياء الطيبة التى أعطتكم إياها».

إن وضع مثل تلك المبررات الصهيونية الزائفة على لسان الشخصية العربية (الذى يختار طائعاً أن يدافع عن الإسرائيلىين، حتى ضد ابنه)، يوجى للمتفرج على نحو قوى بأنها الحقيقة الكاملة التى لا سبيل إلى الشك فيها، لكن المهم أن تلك اللقطة التى يواجه فيها دان وداود الكاميرا وهما يحتسيان القهوة فى جلسة شرقية «غرائبية».. سوف يتلوها مباشرة مشهد للشخصية العربية من « النوع الآخر »، مجسدة فى سالم وعصابته (الإرهابيين) الذين يحاولون اختطاف شاحنة إسرائيلية. وهكذا فإن الفيلم يقول للمتفرج بهذا التتابع للمشهدين إن هذه «اليوتوبيا» بين العرب والإسرائيلىين يمكن لها أن تتحقق، «ولكن» (تلك الـ «لكن») التى نراها من خلال القطع المفاجىء بين المشهدتين هناك شرط لتحقيق تلك «اليوتوبيا»، وهو التخلص من العرب الأشرار المتعطشين للدماء الذين يمارسون عنفهم، ليس فقط ضد الإسرائيلىين المحبين للسلام، وإنما ضد العرب المحبين للسلام أيضاً. وبينما تدور أحداث الفيلم فى عام ١٩٤٩، فإن هذه «الحوار الطوباوي» يتتجاهل تماماً ذلك الواقع التاريخى الصارخ بين الفلسطينيين منذ إعلان وتأسيس دولة إسرائيل لم يكن أسامهم أية «مدينة فاضلة خيالية»، لأنهم كانوا بالفعل قد فقدوا مدنهم وأرضهم الحقيقية. ولكن الصهيونية كانت قد قررت أن تتحدث بدلاً عن فلسطين والفلسطينيين، الذين لم يتع لهم فى السينما الاسرائيلية أن يتحدثوا عن أنفسهم.

وهكذا تاتى لحظة المواجهة بين الشيخ داود (الطيب) وابنه سالم (الشوير)، حين يبحث الآب ابنته على احترام قانون كرم الضيافة الذى يشمل كل البشر (المسيحيين واليهود وال المسلمين). لكن سالم يرد بتنوع من الحماس الا هو العتيف والتعصب الاعمى عندما تنتهى الحرب سوف أنزع جثة اليهودى من المقبرة وأنتركها للكلاب لأننى لن أترك أى يهودى يدنس الأرض التى دفنت فيها أمى، بل إن هذا التعصب لا متوجه للنبيود فقط فهو يرفض أيضاً أن يطلق سراح المرأة الأمريكية المحايدة لأنها جاءت مصحبة اليهودى، وبذلك فإن الفيلم يضمن أن رد فعل المتفرج الغربى سوف يكون متعاطفاً مع المرأة الأمريكية الضاحية التي يرتبط مصيرها بمصير الرجل الإسرائيلي . لكن الحوار بين الآب والابن ينتهى بأن تتوحد جهود قوى «الخير» ضد قوى «الشر»، حين يقف الشيخ دادو وابنته الجميلة نعيمة إلى جانب الإسرائيلي المثالى دان، والأمريكية البزريثة سوزان ، لكسر الحصار الذى فرضته عليهم الإرهابيون ، الذين يجب أن يختفوا لكي تتحقق تلك الهمة الموئية المزعومة داخل المدينة الفاضلة».

إن تلك الشخصيات الطيبة التى تعيش «حالة الحصار»، وفي مرمى نيران الإرهابيين ، يعرضها الفيلم بذلك الشكل النمطي الذى تراه فى العديد من الأفلام الهوليوودية التقليدية حين ينظر الواحد منهم للأخر -فى لقطات متباينة- نظرات متعاطفة محبة، لكن دان يذهب إلى الشاحنة بحيث يصاب بجرح بالغ، وهكذا تزداد العلاقة بين دان وسوزان عمقاً وقد ربطهما الحب والموت، لتقوم سوزان بإنقاذه من خلال التنفس الصناعي، وتصبح المرأة الأمريكية منذ هذه اللحظة عنصراً أساسياً وفاعلاً عندما يتكونا جنباً إلى جنب مع التجربة الإسرائيلية ، لتساعد فى تزويد البنادق بطلقات الرصاص، كما أنها -بعد أن تنتهى المعركة بالانتصار- تقود الشاحنة وإلى جانبها حبيبها الجريح ، لتعود إلى المستوطنة محدودية وتأكد أنها لن تعود إلى أمريكا ، وبذلك ينتهى الفيلم بالنهاية السعيدة لإسرائيل والغرب معاً.

وكما فى أفلام الويسترن الهوليوودية، بين موقف سوزان الأخلاقي يوحى للمتفرج الغربى بما فعله المستوطنون الأمريكيون الأوائل، كما يشير لديه حنيناً إلى روح الماضي الأسطورى الجميل. لهذا فإن فيلم «متمردون على النور» يعكس -بالمعنى



الحرفي للكلمة . «تجنيد» الغرب إلى صف الصهيونية ، وذلك من خلال دفع المت天涯
الغربي للتوجه الكامل مع ممثل الغرب (جندي الصابرا) والفكر الذي يمثله)
الصهيونية) . وبذلك فإن المت天涯 سوف يرى الشرق من خلال منظور الثقافة الغربية
وينتاك لدب اليقين بأن إسرائيل ليست إلا امتداداً للغرب ، وهو ما يعني - وذلك هو
أحد التناقضات الجوهرية في الصهيونية - أن تحرير اليهود الأوروبيين من «الجيتو»
أو الإمامة العرقية لم يضمن لهم أن يتحرروا من توجهاتهم الأوروبية.

تتضمن كل أفلام «الشجاع» الاسرائيلي الوطنية نوعاً من المواجهة بين الاسرائيليين والعرب، التي تتجسد على النحو السينمائي التمثيلي في حالة الحصار التي تعان فيها إسرائيل والاسرائيليون. وإن فيلم «متمردون على النور» يضرب مثالاً مجسداً على تلك الحالة، فالجانب الأكبر من القصة والزمن السريدي الذي يحكى رحلة الاقامة القصيرة للاسرائيلي دان والأمريكية سوزان، داخل القرية العربية، مكرس تماماً لتصوير معاناتهم في حالة الحصار، وبالمثل فإن أحداث فيلم «عمود النار» تدور في مستعمرة صغيرة يحاصرها هجوم القوات المصرية بينما تدور فقرة مدينة القدس في فيلم «التل ٤٢ لا يجيب» خلال الحصار الإسرائيلي للمدينة القديمة. إن حالة الحصار تتمثل وظيفة جوهرية في تعميق التأثير الدرامي لشاعر أبطال هذه الأفلام، وهي المشاعر التي تتبلور في الذروات الدرامية التي تتبع للسرد الفيلمي ب باستخدام مصطلح «رولان بارت» -«مواقف» «أسطورية»، «نهايات مثالية»، مثل إعادة اكتشاف الأمريكي لكونه يهودياً في فيلم «التل ٤٢ لا يجيب»، «اتحاد قبو» «الخير»، الثلاث - تحت قيادة الاسرائيلي بالطبع - في فيلم «متمردون على النور»، بالإضافة للحكاية العاطفية التي تروي قصة الحب بين الرجل الاسرائيلي والمرأة الأمريكية.

إن المعركة بين «الابطال» الاسرائيليين وأعدائهم العرب يتم عرضها دائمًا لكن يراها المتفرج -من خلال الأسلوب السينمائي- بعين التعاطف مع الابطال الذين يدافعون عن أنفسهم ضد العرب وعنفهم غير المبرر وغير المفهوم. وكما هي الحال بالنسبة للهندوسيون في أفلام «الوسترن» فإن العربي في أفلام «الشجاع» الاسرائيلي يجسد -ماديًّا ومعنوًياً- العنصر الخارجي المعادى الذي يمنع الابطال الطيبين من العيش في سلام، وعلى سبيل المثال، فإن المتفرج يرى العرب على الشاشة في فيلم «تمتردون على النور» من وجهة نظر الابطال الحاصلرين، وهو ما

يؤدي به إلى أن يتبني - حتى دون وعي أحياناً - وجهة النظر الصهيونية، التي تعنى بحالة الحصار - في معناها المجازي - الدولة التي تعيش حالة حصار ، ويجب عليها أن ترد الدلوان لكن تظل على قيد الحياة.

بل إن أفلام «الشجاع» الاسرائيلي الصهيونية تعمد في محاكاتها لنمط فيلم «الويسترن» الهوليودي إلى إيجادها بجو «الحدود» بين الدينية والهوية كما يعيشها «الكاوبو» . ففي هذا النوع من الأفلام الاسرائيلية والأمريكية يواجه البطل «الغربي» (سواء كان أمريكي أم إسرائيليا) أعداء «متواشين» (الهنود الحمر أو العرب) ، حيث يمثل البطل الغربي دانة الحمية التاريخية ، بينما لا يملك أعداؤه أى وجود تاريخي حقيقي.

لكن صورة «الحصار» تضرب بجذورها العميقية في التاريخ اليهودي على نحو خاص حتى يكاد أن يصبح نوعاً من الأعراض المرضية لذكريات اليمة تعود إلى تجربة «الحياة في» الجيتو ، وهو ما يبدو واضحاً في ذلك القلق العميق الكامن داخل نمط الأفلام الوطنية البطولية الاسرائيلية ، وكما يتمثل تماماً في فيلم «كانوا عشرة» حيث يحاول المهاجرون اليهود في البداية أن يتحاشوا الصراع مع العرب المعادين ، لأن يحصلوا بشكل قانوني على الماء خلال الليل من بئر مشترك ، لكن البعض وقد ساق بهم الصبر بسبب حالة الاضطهاد في فلسطين ، وهي الحالة التي أثارت لديهم ذكريات المذايق الأوروبية التي هربوا منها ، يحرضون الجماعة على الحصول على الماء وقتما يريدونه دون الالتزام باتفاق ، ويؤكدون موقفهم بقولهم: «إتنا لم نترك روسيا لكن نرحل إلى جيتو آخر» ، وهو القول الذي يعني شعوراً مزدوجاً - من الحنين والكراهية في وقت واحد - تجاه روسيا بشكل خاص ، وتتجاه أوروبا بشكل عام . وبذلك فإن الأفلام البطولية الاسرائيلية تحتفي بالتحرر من الماضي عن طريق تجسيد الدفاع الغدواني عن الحقوق اليهودية ، لكنه التحرر الذي لا يستحقق من خلال الانتقام من الذين مارسوا القمع على اليهود في الماضي (أى الأوربيين) ، وإنما يستتحقق على حساب الفلسطينيين الذين تتوجه لهم الأوهام والاساطير الصهيونية ، التي تضع الأوربيين والفلسطينيين في سلة واحدة هي «الآغيار» .



وبذلك فإن الفيلم يضع الواقع العربي المعاصر في إطار توراتي قديم ، بينما يربط بين إسرائيل اليهودية والغرب المسيحي وبين العالم الحديث ، وبذلك أيضاً فإن العرب المتسردين تتم معاقبتهم ، ليظل العرب المطعونون المتمثلون لإسرائيل يبكون وينوحون عليهم . وإذا كان الشيخ داود يرثى ابنته ، فإن منصرع الابن هو الثمن الذي يدفعه الآب لكي ينعم بالرسالة التنويرية التي تحملها إسرائيل من الغرب إلى الشرق . وبين يمتلك العلم الذي يجعله قادرًا على زرع الطماطم في الصحراء . وإن بطولة وانتصار إسرائيل في هذه الأفلام ليسا فقط تعبيرًا عن انتصار إسرائيل على العرب . وإنما أيضًا انتصار الحضارة الحديثة على المتعصبين الهمجيين الذين ينتمون للعصور المظلمة . ويجب علينا أن نرى تلك الفكرة - التي تعاود الظهور في الأفلام الإسرائيلية - في ضوء السياق اليهودي لقصة الماكبيين اليهود القدماء وحروبهم ضد الفزاعة الأغريقية (خلال القرن الثاني قبل الميلاد) ، فاحتفالات عيد «هانوكاه» تعيد بشكل حرفى تلك المعجزة الأسطورية عن انتصار النور الذى قدمه الماكبيون للشعب

اليهودي، في رمز للصراع بين «أبناء النور ضد أبناء الظلام» (فالطقوس الدينية لهذا العيد تتضمن إيقاد الشموع) وبهذه القراءة الانتقائية التلفيقية للتاريخ اليهودي، تقوم الثقافة الصهيونية بتركيز الاهتمام على فقرة دينية بعينها وتستخرج منها معنى رمزاً ي المستخدم الماضي من أجل «تنوير» الحاضر، وهو ما يفعله فيلم متبردون على النور «عندما يستقل الصورة التوراتية القديمة لكن يجعلها في خدمة القضية الصهيونية».

ولا تخلو الأفلام الصهيونية أبداً من التوابيل «الغرائبية»، مثل أسطورة القبيلة والخيالة والرمال والجمال، وذلك «الوحش النبيل» (العربي الطيب)، وهي الصور التي تتبع جميعها من الخيال الشعري للشعراء الرومانسيين المتأخرين وتصورهم عن «الآخر». ويمكن لنا على سبيل المثال أن نتوقف عند رؤية هذه الأفلام للمرأة العربية. فدانما تقوم الممثلات اليهوديات غير المحترفات بأداء دور المرأة العربية، وفي الغلب تقوم بهذا الدور زوجة المخرج، مثل دفوار هالخمي في «عوديد الثالث»، وبدىء وأماتى في «متبردون على النور»، ودبينا دورون في «سينايا» («السيناوية» أو «امرأة من سيناء»). وهو ما يؤكد النزعة الرومانسية الغربية لخلق ارتباط بين الشرق والأنثى. فالشرق هو ذلك الكائن الصامت الذي ينتظر بلا قوة ولا حيلة حتى يأتي الغرب ليسلبه رغماً عنه - وبالرغم من مقاومة أهله - كل ما يملك، ويخلصه في الوقت ذاته من تخلفه. إن النزعة الذكورية الغربية تضع المرأة الشرقية دائماً داخل إطار نفسي ومادي شديد الشخصوية، وتحيلها بشكل مرضي إلى مجموعة من الأشياء (الجسد والملابس وأنواع الزينة) وللتلذذ على سبيل المثال إلى الرغبة التي استحوذت على قلوبير في روايته «سامامبو» لكي ينزع عن المرأة الشرقية أستارها حتى يرى أفكارها وعواطفها، كما أن المرأة العربية تظهر في الأفلام الإسرائيليـة الصهيونية في صورة امرأة صامتة تماماً، تخفي تحت عينيها الحزينتين وغبة جامحة في أن ياتي الرجل الغربي لكي يحمل لها خلاصها وانتعافها.

إن الدور القصير للمرأة العربية في فيلم «الصابرا» لا يتضمن جملة حوار واحدة، بينما لا تنطق نعيمة في «متبردون على النور» إلا بعض كلمات النوح على أخيها، أما في فيلم «السيناوية»، فإننا نرى الأم البدوية النبيلة التي تخفى الطيار الإسرائيلي (الذي كان قد ضمداً جراحها في مشهد سابق) من الجنود المصريين خلال

حرب عام ١٩٤٨، على الرغم من أن طاولته المحتقرة قد سقطت ودمرت كل شيء، ومع ذلك فإن هذا الدور للمرأة العربية يظل هامشياً تماماً داخل سياق السرد الفيلم حتى أنه يصبح مجرد موضوع أخلاقي مختلف حوله الآراء بين الطيارات الإسرائيلي عن ناحية، وجندى المشاه من ناحية أخرى، فعلى الرغم من أنه ليس هناك مكان للمرأة في الطائرة الروحية التي تمثل الوسيلة الوحيدة للهروب من الحصار، فإن الطيارات يصر على لا يتركها وطفلتها في الصحراء، بينما يقول جندى المشاه إن الجنود لهم الأولوية في زمن الحرب، لكن المهم هو أن الفيلم يفسر ويبرر تصرف جندى المشاه القاسى بأن له ذكريات أليمة عن الإرهاب العربي الذي ذبح شقيقته، كما أنه فقد أعز أصدقائه خلال الحرب، لكنه على أية حال سوف يوافق رويداً على موقف الأخلاقى النبيل الذى يمثله الطيار، بل إنه ينقذ أحد طفلى المرأة من بين يدي جندى مصرى، ويقرر أن يبقى لكي يقدم الغطاء الذى يحمى عملية الإنقاذ (وبذلك فإن الجنود الإسرائيليين ينقذون المرأة البدوية التي كانت قد عانت التعذيب على أيدي الجنود المصريين، الذين حاولوا اجبارها على الادلاء بمعلومات عن الطيار الإسرائيلي)، غير أن الطائرة الروحية تتحطم في النهاية، ولا يبقى على قيد الحياة من بين ركابها إلا طفلة صغيرة.

وهكذا، فإن الفيلم يضع تقابلاً مارحاً بين تصوير قدرة الإسرائيليين على الفعل والتعبير وبين صمت المرأة البدوية التي لا تتنطق حركاتها إلا بما يشى بالحساسية الأمومة والخوف، كما تؤكد لقطاتها التعبيرية جمال عيني المرأة البدوية (وللحاظ أن عيني زوجة المخرج فاتحتان وليستا داكنتين، كما أن أسماعها في العناوين يتزلز في طبع مزدوج على لقطة قريبة للعينين)، لكنها تبقى طوال الفيلم مجرد امتداد لمشهد الصحراة. وللحاظ أيضاً أن «الماكياج» قد حاول إضفاء لون داكن علىبشرة المثلثة الشقراء، وهو ما يجسد على نحو حرفى «الروح الغربية تحت السطح الشرقي»، بما يسمع للفيلم بأن يجعلها تتحرك وتتصرف كموضوع «غرائب»، للكرم الشهوانى والحس والذى يجسد جانباً من النظرة الرومانسية المشوهة التى ينظر بها الغرب تجاه الشرق. وبكلمات أخرى، فإن المرأة العربية فى السينما الصهيونية تجسد نوعاً من العلاقة الرمزية بين المستوطنين اليهود وبين الأرض والثقافة العربيتين، وذلك بخلق توازن بين الشرق والجنسي، ليصبح الشرق الأوسط فى هذا المفهوم أرضًا

عطشى تنتظر من يحرثها ، أو عذراء خجولاً تبدى تمنعاً لكنها راغبة فيمن يسيطر عليها.

من جانب آخر ، فإن تصوير العرب على أنهم لا يزالون يحتفظون بالعديد من التقاليد القديمة ، وبامتداد جذورهم في أرض التوراة - على التقىض من يهودي « الجيتو » الذي بلا جذور - هذا التصوير يوحى بالرغبة الكامنة في التوحد مع العربى كموضوع يجب على الشباب الصهيونى أن يحل محله في أرض فلسطين في محاولة لتحقيق الوحدة والتواافق مع بقایا التراث العبرى القديم وهكذا فإن الصهاينة يستخدمون تجذر العرب في الأرض كنوع من الاستقطاف النفسي لاضفاء الشرعية على جذور اليهود في فلسطين . إن ذلك يعكس نوعاً من « الشيزوفرينيا » التي تحكم رؤية الصهيونية للعرب ، فهم الأعداء ، وهم أيضاً التجسيد الحى على استمرار العنصر السامى في الوجود ، وإن هذه الشيزوفرينيا تتغلغل في الأفلام الوطنية الاسرائيلية في تصويرها الثنائى للصورتين التقىضتين في الشخصية العربية ، إحداهما تمثل النموذج البدائى لما يسمى « الشرقي الطيب » (المطيع ، الكريم ، المتسامح ، والتوراتى أيضاً) الذى يساند اسرائىل ، أما الآخرى فتمثل النموذج البدائى لما يسمى « الشرقي الشرير » (غير العقلانى ، الفاسد ، المتعطش للدماء) الذى يعارض وجود الدولة الصهيونية .

وإن المزاج فى فيلم « متعمدون على النور » بين القصة التوراتية (عن الملك داود وابنه أبسالوم) والقصة المعاصرة عن الشخصيات العربية (الشيخ داود وابنه سالم) يوحى في الوقت ذاته باعادة توحد الصهيونية مع بقایا تراثها القديم ، بينما يتجسد ذلك كله في نوع من « تحنيط سكان البلاد الأصليين » في قالب نمطي ، لكنه يخدم فكرة وجود جذور يهودية في « أرض الآباء » . وبكلمات أكثر وضوها ، فإن « الحضور - الإيجابى » للعرب في مثل هذه الأفلام لا يشير في نوع من التناقض الكامل - إلا لغيبتهم (عن كل حسابات الفكر الصهيونى) ، وأنه الحضور الذى ليس له من سبب للوجود إلا أن يشير في نفس المترجع الغربى ما يؤكد لديه أن لليهود ذاكرة جماعية تندى عميقاً في أرض فلسطين ، أرض التوراة . وحتى بالنسبة لأكثر السينمائيين الاسرائيليين تحرراً ، فإن النزعة الصهيونية المتغللة في أعماق روئيتهم يجعل رحلتهم إلى « عالم العرب » رحلة شديدة الالتصاق بالذاكرة اليهودية الجماعية

وإذا كانت المرأة الأمريكية سوزان في فيلم «متمردون على النور» تذكر أنها لم تكن معرفة أن لبيذة الأرض وجوداً خارج التوراة، فإنها بذلك تعكس الرؤية الغربية المعاصرة بجاه الشرق، وإذا كانت الأرض التوراتية قد أصبحت ذات وجود حقيقي بالنسبة لها، فإن ذلك لم يتحقق فقط برحلتها إلى إسرائيل، وإنما أيضاً برحالة الحج الروحية التي فامت بها وتحولت فيها إلى الإيمان بالأيديولوجيا الصهيونية، وعندئذ فقط سحرل الشرق في المفهوم الغربي إلى اكتساب صفة الوجود الحقيقي بما له من فوائنه وشفارات الخاصة وهي ليست قوانين أو شفرات الوعي التاريخي العربي الذي ما زال يحيى على هذه الأرض، وإنما وهي يتم تشكيله وصياغته من خلال المنظور اليهودي- الإسرائيلي.

لكن اختبار «البدوي» ليكون تجسيداً لشخصية «العربي الطيب» في الأفلام الصهيونية يعكس جانباً مهماً، ليس فقط لكونه نوعاً من الصورة الفولكلورية للخيام والجمال، ولكن الأهم هو أنه إذا كانت القبائل العربية البدوية لها جذورها في تقاليد الشرق، فإنها بطبعيتها المرتحلة وغير المستقرة -ليست لها أية جذور في الأرض، لذلك فإنها لا تمثل خطراً أو تهدىداً حقيقياً على المزاعم الإسرائيلية بالسيطرة على أرض فلسطين وأمتلاكها - وإن الشخصيات البدوية (وحتى شخصية شيخ القبيلة التقليدي) تكشف التناقض الأصيل في نظرية الصهيونية إلى الشرق، فهي من جانب تعبّر عن الرغبة في عودة اليهود الأوروبيين إلى جذورهم الشرقيّة، بعيداً عن القمع والاضطهاد الأوروبيين، بينما تعكس في الجانب الآخر تلك النظرة الاستعمارية تجاه العالم الثالث وشعوبه باعتبارهم قوماً مرتاحلين ليس لهم أية حقوق في الأرض، ومفتقدين لأية شرعية حضارية أو قومية حقيقة.

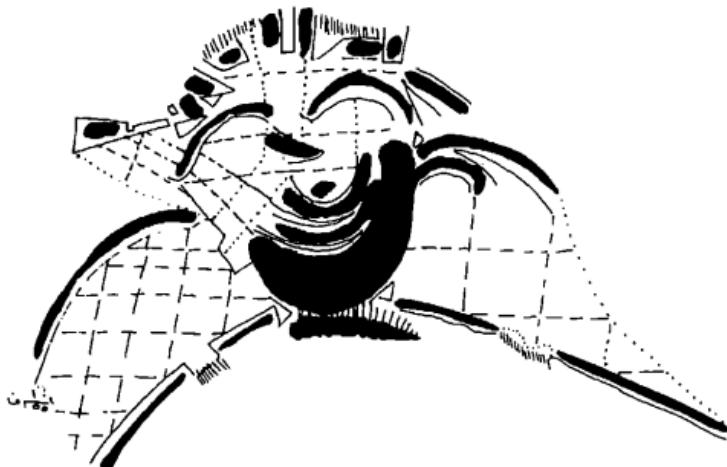
شعر

نشوة شاردة

صلاح بوسريف

هياً لى ماءٌ
وأشرع لى تراب الأرض
من بين فروجها
كان البحر ينسرب
كحبات ضوءٍ
نازلاً
من بين الغيوم
ليس لى ما يكفي من الماء كي أبلل هذا التراب
وأرى ظمآن الأحجار
يدى
كانت تقيم لى
كل هذا الولاء
وأنا
ما زال
فى
شهواتى أقيم.
لم هيات لى كل هذه المسرات

وتركت لى يداً
من
فروط رعشاتها
تركت
فى
ذمتك
كل حياتى
ما الذى حدث
أهى يدى التى طافت فوق ماءٍ
غير مائتها.
ماذا
لو هيأت السفن
وفتحت الأشرعاة
وندبت مراسيلى لاستقبال النازحين
كل الذين انتدبتهم حدوسى
كلهم
من جمراتهم خرجوا
لى
حلم يصاحبنى
متى
تهيات لسفر آخر
ولى
ليل
كان يرشقنى
بفتنة قادمة.
ظننت أن زوارقى شردت
وأن أطياف صخور ونخلات بدت لى



من بعيد
وأن بي عطشاً.
ليس في الأفق
نسمات باردة.
بين يدي موايل
وثمة انفراحات
كانت تخرج
ما تبقى.
أويت ظلى
منتشيا
بما
في
أحلامي
من
نشوة شاردة

غواية القص في ناصية سليمان

عبيد عبد الحليم

١

يعتمد « مجدى حسنين » فى مجموعته الأولى « ناصية سليمان » على لغة للقص ترتكز على درجة كبيرة من الوعى بآدوات هذه الصناعة ، والمتمثلة فى حساسية عالية باستخدام الأدوات التى تهدف إلى تشكيل اللحظة الحكاية المؤثرة من خلال بناء فنی ملىء بالدلائل والمعانى المستمدة من الواقع .

وبرغم الحزن الشديد الذى يخلف قصص المجموعة إلا أن هناك تمرداً واضحاً للخروج من بوتقة « السرد الجنائزي »

وكان الكاتب يؤسس لذلك فيتجلى ذلك واضحاً فى القصة الأولى « قلم كوبايا » حيث يقول فى مطلعها : « أقسمت بظهر الحزن ألا أفعل خيراً هذا العام ، لقد خشيت على نفسى فعزمت النية أن أعيش لها أدارى تقيحات جروحي التي سدت رأحتها المتعدنة عن أنفى رائحة الذكرى » قلم كوبايا ص ٣ - ومن خلال هذا السرد الحكاوى نجد أن الكاتب يمهد للمونولوج الداخلى - حيث الصراع الدائر بين الذات المهمومة والماضى بما يحمله من أوجاع تعيل لحظة الذكرى إلى لحظة دمودية لا تنتهى .

« سلينا حالى روعة الحب بتقرير ظهورنا بالعصا - الآن لم أعد أفصل بين رائحة الجروح ورائحة الذكرى »

قلم كوبايا ص ٧

وفى قصة « ناصية سليمان » تتحول الأشياء الصغيرة إلى حاجز نفسى بين الذات والمكان الذى يتخذ صورة واحدة لاتتغير « نفس الشارع والتاصية ذاتها

هذا المثلول المكانى المعتمد جعل - هناك - تباعدًا بين الإنسان والآخرين من جهة - وبين الإنسان ذاته من جهة أخرى ، مما جعل الرواوى يلوذ بمكان آخر متخيل - طرقاته متعددة ، مليء بالفرح ، مكتظ بالالفة ، ترتاده الحبوبة - كل صباح .

ويأتى استبدال المكان بأسماء شخصية - كرمز دال على تعريف فكرة الخروج من خلال « سليمان » الصديق - أو الوجه الآخر للراوى ، والذى يتغلغل فى البنية الدرامية للقصة كوجه مطلق للبراءة .
وتأخذنا القصة - ذاتها - فى بنية شفافة عبر صوفية لغوية من خلال صوت الراوى / العاشق « ابتسם داخلى وأنشد : أنا أول المقربين وأول المنصتین ، وأصل المنتهى ، وكاشف الحدود ، وطاعن القربى ، أنا الطالع والمطلع » ص ١١ وربما التداخل اللغوى فى سطور القصة يوحى ببعض الغموض الذى يجعل القارئ العادى فى حالة التباس .

والمتتبع لماهية المكان فى القصة سيدرك أنه ليس مكاناً حقيقياً لكنه محاولة لإيجاد منطقة تجد فيها النفس ناصية يدركها - فيها - سر الشمس .

٢

وبما يبدو المعنى غريباً - للوهلة الأولى - لكننى أقصد من ورائه أن يلبس الراوى ثوب شخصية أخرى يسرد من خلالها دراما هذا الآخر حتى ولو كان هذا الآخر « صدأً » من الناحية العضوية . وهذا ما قال عنه بوث « إن الراوى الدرامي هو الذى يحدد نمط السرد ، إذ يعتمد التحليل عنده على فكرة الشخص .

وهذا بالضبط ما فعله « مجدى حسنين » فى قصصه « القفل - أحزان البرتقال - يونيو - كانوا .. »

حيث استخدم تيمة السرد الوهمي والذى جاء بصورة متقنة محابية معبرة عن مشاعر المرأة المصرية والتي تعجز - هي - أن تقولها رغم ما يسمى في الأونة الأخيرة بـ « الأدب النسائى » :

ففي قصة « القفل » نلاحظ الجدلية الأزلية بين قطبي المعادلة البشرية « الرجل / المرأة » - الرجل فى نزواته المتعددة - والمرأة فى حلمها الأزلى « الزواج » وهو حلم « فطري » يتراءى أيام كل فتاة منذ الطفولة .
وقد أحسن الكاتب استخدام الرمز بدلالاته المتعددة والتي تتوجل - بتلقائية فى البنية الأساسية للنص .

وفي قصة «أحزان البرتقال» حالة أخرى مما تعانيه البنت المصرية والشرقية - بصورة عامة -

فبطلة القصة تتتحمل مسئولية أسرة بأكملها ومن خلال بيعها للبرتقال تعلمت كيف تواجه الواقع بأقتنعه المتعدد ، ولكن برغم هموم الحياة لم يسقط من ذاكرتها «الذكر كمعادل موضوعي للحياة بالنسبة للأنثى».

ـ كلما جلست أغتنس على حافة النهر - في نهاية النهار - أرى أشبالهم وأحدهم يلوح لي ص ١٧

ـ لكنهم ليسوا أشخاصاً حقيقين بل مجرد أطيات تتراهى للعين ، تستحضرهم لحظة «الشبق» التي لا تجد ملائلاً لها مما جعلها تصرخ متسللة «أى حلال يحرقنى انتظاره ولا يروينى» ص ٢٠

ـ مما حدا بها إلى أن تلجن إلى «الحلم» في دلالة صارخة لإدانة الواقع.

ـ وفي قصة «هكذا يبدو» صورة أخرى لأمرأة مجانية تتغاضى الخطيئة - كل صباح - في القطار «في طقس يومي تشوبه آلية العادة أحياناً».

ـ أما في قصة «كانوا» .. فنجد الصوت الرافض للمرأة حيث تحاول أن تنفي «الرجل نهائياً عن حياتها مهما كلفها ذلك من متاعب وأوجاع».

ـ ساجتهم من جذورى ، من شقوق جدرانى التي سكنوها من الأطر وببراويز الحوائط «ص ٢٥»

ـ لكنه نفى متاخر ، بعد تجارب زوجية كثيرة وقائلة ، تعود في الأساس إلى الاختيار الخاطئ ، صورة الرجل - هنا - شبح - لكنه شبح مخيف يملأ فساد السكون ..

ـ وفي قصة «يونيو» والتي أجاد فيها الكاتب استخدام الرمز بصورة درامية يتجلى الوطن في صورة البنت / الرمز - والتي تدللت سرتها منذ لحظة الميلاد وظلت تائنة في جسدها مما أثار عطف الآخرين ، ودفع الذات إلى التتحقق حول نفسها . وحين تتزوج هذه البنت فإن يوم زفافها يكون يوم أن تتحوالى قذائف العدو على الوطن ، ولسان حال البنت يقول ..

ـ «أنت وهذا الشهر تتبدلان - دائمًا - الهزيمة وانتخاب الدم» ص ٤
ـ وإذا عدنا أدرجنا إلى عنوان القصة تنامي الاحساس بداخلنا يعمق الهزيمة.

ـ أما قصة «البالونة»، فتتخذ مضموناً فانتازياً حين تشتبك الخرافات مع الواقع لتخترق حاجز اللامعقول ، حيث الشيخة «أطلة» تجثم على أرض الواقع كنموذج خرافي من فنادق كثيرة تسكن في ذاكرة الشعب المصري وهذا

مأسماه «لوسيان لييفي بروول» بالعقلية البدائية وهي «التي تقوم على توظيف مكثف للخرافة والأسطورة في فهم حياتها وترتيب العالم المحيط بها» فنجد في هذه القصة:

- ١- النعش الذي يطير في الهواء.
- ٢- دوران النعش حول أضحة الأولياء.
- ٣- تسمم النعش بجوار المقامات.
- ٤- فتوى الفقهاء بقراءة الفاتحة والمعوذتين وسورة الإخلاص حتى يتجرك الموكب.

الدهشة - إذن - هي مفتاح قراءتنا لهذه القصة العجائبية ، والتي تكشف ترسيبات الفكر البدائي الناتج عن عصور الانحطاط في العصر المملوكي والعصر العثماني ولم تزل تسكن في الذاكرة الجمعية ل معظم أبناء هذا الشعب حتى إن الدراسات الميدانية الحديثة أكدت أن ما يزيد على ٧٠٪ من فئات الشعب المصري - ونسبة كبيرة منهم من ذوي المؤهلات العلمية - يعتقدون في هذه الخرافات. وقد أجاد «مجرى حسنين» في رسم هذا الموقف الجمعي من خلال الرمز بأبعاده المختلفة. فالنعمش / الخرافة - في رحلة عبئية «فانتازية» يلهث وراء الصبي / الواقع في محاولة لاستلابه.

«يجربني النعش في انطلاقاته ولا أملك إلا المراوغة» ص٩٥

وفي قصة «صانع الدمى» تتناهى الأحداث عبر زمان استثنائي ، وبلغة ساخرة تكشف زيف الواقع الذي تنسنه كثيرة ، وعبر عدة مستويات دلالية يتقطاع خلالها المستوى الواقعي والمستوى الرمزي والمستوى الأسطوري يتكون عبر ذلك - الحدث بخطوطه الغريضة.

ففي المستوى الأول «الواقعي» نجد أسماء لأشخاص شكلوا مرحلة مهمة في التاريخ المصري «عبد الناصر» و«المشير عامر».

لكنها تتلازد بعد آخر حيث «الفانتازيا» ممزوجة بملامح العبث.

ـ رأيت الرئيس عبد الناصر والمشير عامر بملابسهما الداخلية في البراج أول السكة الجديدة حول طشت غسيل من النحاس ، تعلوه أكواخ من الملابس المتتسخة ، ورأيت كل المساعدين والتواب الذين تعرفهم يخلعون وراء الأشجار ملابسهم» ص١٦

أما المستوى الثاني «الرمزي» فيتمثل في:

أولاً: أكواخ الغسيل التي تصير عند الفروب أهرامات كثيرة .
ومن المعروف أن الأهرامات - دلالة قاطعة على الكيان الحضاري للشعب المصري بما تمثله من بعد زمني ، وكان هذه «الملابس المتتسخة» هموم شعب بأكمله مما يجعل الزمن «الناصرى» على حد تعبير الكاتب «حلماً غريباً يخاف



تفسيره ٦٢

ثانياً: حكاية الخفير العجوز الذي جاءوا به لحراسة استراحة الرئيس في القنطر و ما يحمله من دلالة "أراه جالساً على مقعد من الجريد ، في يده اليمني رمح طويل ، يخطط به في التراب ، ويحفر به عند الإلهام حكاياته على الجدران ، وفي اليسرى ذيل جاموس وحشى يهش به زباب المراحل".

هو بورتريه عبشي - إذن - بريشة طفل عاش تلك المرحلة فتخمرت بداخله انكساراتها حتى صارت - مع الزمن - جرحاً غائراً في الظهر.

أما بعد الثالث في القصة وهو بعد الأسطوري فتتناهى أحداثه بداية من أول القصة ، حيث الصورة المرئية للرمز - حتى يخفت رويداً - رويداً مع عامل الزمن فيصير مجرد شبح وأسطورة مرعبة.

مما حدا بالجدة / الوطن - أن تخاف على أبنائها وأحفادها من أن تتجسد فيهم "روح الحلم"

لكن رغم ذلك تتخل هناك بارقة أمل - في المصباح الجديد -
« قررنا أن نكتنس كل شيء ، ونتربّق الأنفاس الجديدة ».

القرية المصرية في أعمال راغب عيّاد

تأليف أناطولي بوجدانوف

ترجمة د. أشرف الصباغ

إن موضوع النضال من أجل استقلال مصر في الأيام الخريفة الخطيرة من عام ١٩٥٦ م تحمل في فن زمن ما بعد الثورة مكاناً مهماً. وأعمال الجرافيكين والرسامين والمثالين المشبعة بالوطنيّة وحب الحرية صنعت في أغلبها بالوسائل الفنية نظراً لأن الطريقة الواقعية بالذات قادرة بصدق وعمق على الكشف عن المضمون المتعدد الجوانب للواقع، والإعلان عن نضال الشعب في سبيل الحرية. وينتقل جزء من الفنانين، الذين تأرجحوا سابقاً في وجهات نظرهم، من تحت تأثير تجارب الحرب إلى تحقيق أفكار وطنية سامية ووسائل واقعية للتعبير في ميدان الفن. وبالتالي يبقى في ذلك الفترة الذي قام برص صور الفنانيين الوطنيين أحد أهم وأنصع المصفحات في تاريخ المدرسة الفنية المصرية المعاصرة.

ولكن التطورات التي حدثت بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م في الوضع السياسي الداخلي لم تتسبب بشكل واضح ومفهوم في نمو النزعات الديموقراطية في حياة مصر. فقادت العديد من الشخصيات البرجوازية الصغيرة العاملة في مجال الثقافة باستقبال الانقلاب الثوري بحماسة شديدة على أمل أن يقوم بالقضاء على ظلم وطغيان البرجوازية العميلة ويقف ضد ضغط القوى الرجعية. في حين لم تتحقق أمال طليعة الإنجلجنسيا في سرعة إشاعة الديموقراطية في المجتمع. وبعد أحداث عام ١٩٥٦ م ظهر نمو ملحوظ في نشاط العناصر اليمينية والدواتر الرجعية التي أبدت قوة وصلابة، وتصاحب التحرك نحو اليمين، في ميدان

الفن، برفض مجموعة من الكتاب والفنانين التعامل المباشر مع الحياة ونسوا تلك النماذج الإنسانية المبدعة التي عملت على إعلاء وتنشيط ورفع المستوى الفكري الرفيع للأدب والفن في مرحلة الغليان الاجتماعي - السياسي. وظهر تأثير النظرية الانحطاطية على الفن التشكيلي في فقدان التوجه الاجتماعي للعمل الفني، والتلاشي التدريجي لمجموعة الموضوعات الحيوية الملحة وهي الأمور التي تسببت في ظهور القومية العربية، حيث دعا أنصارها من الفنانين إلى التقوّع داخل الأطر الدينية - المعيشية الضيق، والتصورات الرمزية الأسطورية. وكانت محاولات نشر فكرة تعاقب الأجيال بشكل مباشر وترسيخ فكرة الصلة المباشرة للرابطة الثقافية بين قدماء المصريين والمصريين المعاصرین من الأمور التي تحتل ترتيباً متقدماً في قائمة وجهات نظر القوميين. وإذا كانت عملية «التمصير» في السنوات العشر الأولى من هذا القرن قد اتسقت مع متطلبات حركة التحرير، ومن ثم لعبت دوراً إيجابياً محدداً، فمتدّي بداية الخمسينيات أصبحت المقارنة - أو بالأحرى المواجهة - المصطنعة لختلف المراحل التاريخية سلاحاً أيديولوجياً في أيدي الدوائر القومية.

على ضوء مثل تلك «النظريات» تحدث عملية تقوية - وهذا أمر مفهوم - للنزعات الموجهة نحو الماضي في الأعمال الإبداعية لأولئك الفنانين الذين أسرعوا بالإعلان عن أنفسهم كفنانين وطنيين على أساس الروابط الشكلية تماماً مع قواعد وقوانين الفن المصري القديم. وبدأت الأحلام بالعظمة القومية، وبالطريق الخاص للتطور التاريخي تتعكسان أحياناً في الرمزية المبهمة للنماذج العتيقة، وأحياناً في النماذج العاطفية الحالية، وأحياناً أخرى في التقني المعسول بالمشاهد الأبوية - التقليدية بالحياة الزراعية كما لو إنها ما تزال تحافظ على صفاء ونقاهة تقاليدها في شكل مصون طوال آلاف السنين. لقد حدث ابتعاد عن طرح وتقديم تناقضات الواقع - وهي الظاهرة التي انتشرت بحدة في الفن المصري، والتي أعطته ملامح التقوّع القومي والمحدودية . ولقد قامت خصائص الحياة الاجتماعية المصرية في الفترة المعاصرة بزيادة عزلية التصاليم بين النزعات والتيارات المتناقضة في الفن التشكيلي، والتي تم رسم المؤشرات الأولى لولادتها في سنوات ما قبل الحرب. إضافة إلى ذلك من الضروري الإشارة إلى إحدى البديهيّات العامة بالنسبة لأعمال مثل التيارات الفنية المختلفة. وهي عملية استقرار الوسط المحلي وثبتاته، تلك العملية التي يتم الحفاظ عليها

حتى في ظل وجود التيارات والجماعات الفكرية - الجمالية المتعارضة. تلك الظاهرة الخطيرة جداً والمهمة لا تختص فقط الفن المصري وحده، ويمكن العثور على أمثلة مشابهة في المدارس الحديثة الأخرى بدول آسيا وأفريقيا حيث قضية تحقق ما يسمى بمجموعة الموضوعات المحلية كانت منذ البداية غير منفصلة في العلاقة مع مفهوم الأصالة في الفن . وبالتالي فالجدور التاريخية لهذه القضية، والتي لا تنفصل عن تنامي الوعي الذاتي القومي، كانت السبب في اهتمام الفنان الدائم بالحياة الشعبية على الرغم من أن جوانب فهمها يمكن أن تمتلك طابعاً غير متجانس.

لقد تركت صعوبة الوضع، الذي جرت فيه التحولات الثورية، بصمات معينة على تناول ومعالجة مشاهد الواقع ونماؤجه - على سبيل المثال، من خلال أغلب الأعمال الفنية لتلك السنوات يمكن رصد وجود تصوريين أساسيين في الفن المصري. أولاً: ذلك التصور التأمل لحياة الشعب، والبعيد عن القضايا الحيوية الملحة للواقع القومي، والذي تجسد في أشكال الأعمال الإبداعية الديكورية - الزخرفية . ثانياً: ذلك الفهم الدرامي للواقعية والذي يجد انعكاساً في وسائل التعبير الأصطلاحية، وعلى الأخص المذهب التعبيري. على ضوء التأثير الجزئي وعملية الإثارة المتبادلتين لهذين التصورين تظهر أعمال فنية تقف بقوة ونجاح في مواجهة الشكلية الواضحة والمسافرة، تلك الأعمال كثيرة ما كانت تفتقد الحدة الاجتماعية، والدقة الفكرية للمضمون، ولكن في ظل ظروف الحالة السياسية المتقلبة والمصراع الضاري للقوى والتيارات الفنية، تكون مثالاً للتجسيد الأكثر إخلاصاً ومنطقية في الفن الذي يعالج القضايا والمهام القومية.

استمر الفنانون التشكيليون الذين ينتمون إلى الجيل القديم في لعب دورهم الرائد لتوطيد وترسيخ موقع الفن الواقعي، وتطوير الأجناس الأساسية للفن التشكيلي المصري. وكانوا هم أنفسهم الذين بدأوا نشاطهم الفني قبل الحرب بزمن طويل مثل يوسف كامل ، ومحمود سعيد، ومحمد ناجي، وراغب عياد (المولود عام ١٨٩٣) والذي يعتبر أحد مؤسسي فن الرسم الحديث في مصر. ولكن ، بخلاف أترابه، وصل إلى النخجوج الفني في وقت متاخر جداً، حيث إن فترة التعليم الطويلة - في البداية بالمنزل، وبعد ذلك في إيطاليا - التي أعقبتها الوظيفة لفترة طويلة أيضاً في منصب مدير المتحف القبطي بالقاهرة، تفسر كلها الظهور المتاخر جداً للأعمال المهمة الأولى لراغب عياد المؤرخة في نهاية الثلاثينيات.

كانت أعماله المبكرة التي تم إنجازها في الخارج تعكس دراسة زائدة الدقة

للموضوعات التموزجية («حنى في روما»). بيد أنه بعودته إلى أرض الوطن يبدأ على وجه السرعة في رفض المبادئ الأكاديمية وينتقل إلى تقليل أساليب فن الرسم المصري القديم ومتزوج النزعة الفنية في التوجه إلى الماضي عند راغب عياد في المقام الأول بمجموعة موضوعات لوحاته المحملة بالجوانب الخارجية المألوفة على نحو سطحي للحياة الشعبية («رقصن في أسوان» ١٩٣٧م، «الباعة ١٩٢٨م). ومن أجل تقديم أهل مصر العليا وهم يرقصون ، يسعى الفنان بشكل واضح ودقيق نحو هدف صياغة الإيقاع الخطي المجرد، وكذلك الإيقاع اللوني للشخصيات التي سلك في معاجتها قواعد وقوانين الفن المصري القديم.

وكانت الدائرة المفضلة لأعمال السنوات التالية لدى راغب عياد هي تصوير الحياة التقليدية للقرية المصرية، والأعمال اليومية للفلاحين المصريين، وطقوس مئات السنين مع العادات الدينية، والعالم اللوني للفولكلور الشعبي. وقامت سردية هذه الأعمال التي تتطلب حكاية وتفصيلاً بتوجيه نظر راغب عياد نحو شكل التكوينات الثلاثية التي تتيح الفرصة لمعالجة المشكلات الفنية الأكثر تعقيداً. ففي لوحته الثلاثية «المسيير» (١٩٣٩م) يجري تصوير سير أو انتقال الفلاحين بقافلة الجمال المتوجه من قرية بعيدة إلى سوق المدينة. هنا، كما في السابق، كل شيء مبني على استخدام البقع اللونية المتفرقة والمتوافقة مع حدود أشكال وقامات الأشباح التي تم وضع خطوطها الحبيطة بشكل دقيق، ومع مرور الوقت تفقد أعمال الرسام نبرتها الروعوية السانحة المنذجة، وتمتلئ بالشعر الحقيقي الأصيل للحياة الحبيطة. وتصبح لدى راغب عياد، ذي الخيال الفني الغني، القدرة على نقل الحال الرومانسيكي والمتعمق الحقيقة إلى كل مشهد فني في أعماله. وأخذت رسومه تتحرر من الأسلبة اللحوحة الثابتة، وشرعت الألوان في الابتعاد عن اللمعان والبريق والخلية الأمر الذي أدى في النهاية إلى إثراء نبرته الفنية ومجموعةawan.

تلك الملامح تميز أعمال الخمسينيات، بظهور سلسلة اللوحات الكبيرة، التي دخلت في مجموعة «القرية المصرية». فعلى غرار التكوينات المبكرة لـ محمد ناجي والتي أخذت تسمية «القرية»، تشهد هذه التكوينات أيضاً على محاولة تأسيس مشهد (بانوراما) للحياة الزراعية القومية في مصر. وأدت الرغبة في إنجازها على نحو أتم وأوسع قدر الإمكان إلى توجيه نظر الفنان إلى اختيار أحجام وقياسات غير عادية تنتشر على أبعاد اللوحة كلها، وتذكرنا باللوحات الجدارية الديكورية واللوحات التي تتضمن العديد من التفاصيل. تلك المشاهد

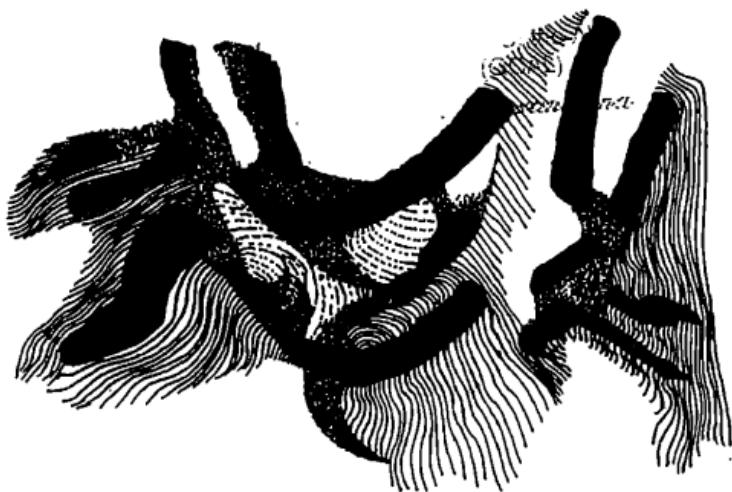
(البانوراما) التي وકأنها قد رسمت من أعلى تولد انتباعاً بعدم محدودية التموج المرسوم والإتساع الملحمي لحياة الشعب. وفي عام ١٩٥٩ اكتسب عمله الاثنان أهمية خاصة حيث انتشرت قاتمات الناس وأشكال الحيوانات على جميع مساحة اللوحة الممتدة. هنا تتفتح أمام نظر المشاهد الآفاق البعيدة المしまسة مع أحراش التخييل الخضراء - القاتمة وشريط النيل السماوي والرماد الصفراء.

في جميع أطراف تلك الأرض الشاسعة، في التقاءاتها وتفرقاتها، تتحرك مجموعات الفلاحين وتخطو الجمال المحمل بالأحتمال القيمة في إيقاع رتيب وتبخ البغال بخطوات سريعة وتتزاحم وتحتشد قطعان الأغنام. في نفس المكان يتخلل الجمالون والبغالون، والنساء يطعنن أطفالهن، ويقمن ببطهو الطعام. كل مشهد مركب على الآخر، والتعبير يتسع وينتشر في شكل سرد تفصيلي شامل ودقيق وطبيعي بدون تكلف. هنا يبني الفنان تكوينه أخذًا في اعتباره الاتصال والامتداد لما يسمى بـ «مساحة البساط الخالية» كلها، والذي تقابله كثيراً في الرسوم الجدارية بمصر القديمة، وتشكل البقع الحمراء والزرقاء للثياب، في ارتباطها بالإيقاعات الساطعة للمنتظر الطبيعي، سطحاً أنيقاً ملواناً للوحة، وتعمل على تقوية زخرفتها العامة. إن أعمال هذا الفنان تتميز بامتزاج مبادئ النحت والفخامة والجلال بمبادئ الجنس الفنى، وكذلك الصدق الحياتى بالشاعرية الخاصة المميزة للأمور المعيشية للشرق الصاخب والبهيج.

يتزايد الإحساس بالتوقع إلى الفخامة والضخامة وتجاوز رسم لوحات الحوامل على نحو أشد وأقوى في الأعمال الفنية المنجزة خلال فترة زمنية متاخرة، وعلى سبيل المثال لوحة «في السوق» (١٩٦٢م). وهذه السعة تفسها ملازمة حتى للرسوم غير الكبيرة المرسومة بالألوان المائية الشبيهة بالرسوم التزيينية وذلك بفضل الخط الأسود المحدد للظلل والمعالم، ومن ثم فتلك تتضمن نزعة التحديث والتتجديد بشكل بارز، ومن اللوحات الرازنة «سباق الخيل» (١٩٥٨)، «أسرة سعيد» (١٩٥٨).

في الأولى تدفعنا أوضاع الخيول وأعناقها الملتوية الصلبة والعدو السريع الجبار على كر الجياد التي كانت تجر العجلات الحربية للفراعنة في الرسوم القديمة البارزة.

وحيثما تقلب راغب عياد على النزعة المدرسية البدائية لجعل النماذج قديمة، وكذلك على تجاوز الوسائل المتبرعة في فن الرسم، استطاع أن يسهم بتصنيبه في تشكيل الجنس الفنى المرتبط بالحياة المعيشية مضيقاً إليه الفردية المعبّر عنها



بشكل ساطع. وبمناسبة افتتاح المعرض الشخصى للفنان عام ١٩٦٢ م فى القاهرة، كتب النقد: «يحافظ راغب عياد على الاهتمام الدائم بتصوير بلده الحبيب وال فلاحين المصريين أثناء عملهم وفي فترة راحتهم بهمومهم اليومية ولهؤهم بين أحضان الطبيعة وفي الهيئة المتواضعة للبيوت الريفية مبديا على الدوام الذوق الفنى المتميز والإحاطة بالمعارف الموسعة لحياة الشعب».

وقد وفق عياد فى تنشئة عدد غير قليل من رسamei هذا الجنس الفنى (رسم الموضوعات) من الجيلين المتوسط والناشئ من سعوا على أثره إلى تطوير مجموعة الموضوعات الفولكلورية الشائعة، وهى تتعكس باطراد فى الرسوم المرتبطة بالمبادئ الديكورية - الواقعية وللون الفنى، والتى تُعبر بشكل رئيسى عن المفارقات الواضحة بين الطبيعة الجنوبية والمعيشة القومية. ويتميز عدد من الفنانين بالإحساس العالى باللون الرامى أحيانا إلى إحداث التأثير الخارجى. وتقوم رسومهم على أساس من الجمع بين البقعة الواضحة والمسافرة للألوان غير المختلطة والموحدة بخط محبطى. وأمثال تلك الأعمال تشكل ما هو بمثابة الخطوط التعبيرية فى الرسوم القديمة (سيد عبد الرسول، وتحية حليم)، والمنمنمات العربية للقرون الوسطى (حسيب عيسى)، والسجاد المصرى (عمر النجدى)، واللوحة الشعبية (طه حسين).



أ. علاء الدين شوقي

www.lisanarb.com

